حراء

مجلة علمية ثقافية أدبية

www.hiragate.com

دورية تصدر كل شهرين

السنة الخامسة عشرة / (سبتمبر - أكتوبر) ٢٠١٩

74

Hira Magazine | Knowledge - Cultural - Literary |September - October 2019

حتى قيام الأنام

دَعِ اليَائسينَ وحَيْرى المرامْ ... يُغنّونَ بُؤْسًا نشيدَ الظلامْ

وحَلّقْ بعَينَيكَ خلفَ الغيوبِ ... فَكَمْ من مُفاجأةٍ في الغمامْ

ورحمةُ ربِّيَ عمّا قريبٍ ... تحلُّ وتغْمُرُنا بالسّلامْ

ونزْهُو بعالَمِنا المُرْتَجَى ... مِنَ الآنَ حتّى قيامِ الأنامْ

***

٢ أيام نحلم بها
فتح الله كولن

١٩ محطات كهربائية في أعماق البحار
محمد سلمان المندعي

٤٢ الصداقة من العنف إلى اللاعنف / **حمزة بومليك**

إلى مزيد من العطاء

تحتفل مجلة حراء مع هذا العدد بعامها الخامس عشر. نعم، خمسة عشر عامًا من العمل الدؤوب والإنتاج المعرفي الغزير والتجربة الثرية. ومع كل عام تزداد حراء شبابًا وحيوية ونضجًا. بهذه المناسبة السارة تتقدم أسرة المجلة إلى كتابها الأكارم وقرائها الأوفياء ببالغ الشكر وعميق الامتنان، وتتمنى لهم مزيدًا من التألق والعطاء.

في هذا العدد تطل علينا حراء بمجموعة من المقالات المنتقاة بعناية، لتضيف إلى معارفنا السابقة معارف جديدة، وتعمق رؤيتنا إلى الحياة والأشياء والأحداث التي نراها من حولنا.

الأستاذ فتح الله كولن في مقاله الموسوم بـ"أيام نحلم بها" ينبهنا إلى مفهوم "المستقبل"، هذا الهاجس الذي لا يكاد يغادر بال أحد منّا، كلنا نسير نحو المستقبل، فأي مستقبل نحلم به؟ لأن حاضرنا وليد ماضينا، ومستقبلنا ثمرة ما نصنعه اليوم.

هل للألوان أثر مباشر على نفسية الطفل؟ كيف تختار اللون المناسب في الوقت المناسب لطفلك؟ الدكتور محمد السقا عيد يتحفنا بمعلومات قيمة في مقاله "تأثير اللون على شخصية طفلك". أما الدكتور عبد القادر طاهري في مقاله "الرحمة في أبعادها الإنسانية" فيسلط الضوء على قيمة إنسانية مركزية، قيمة الرحمة التي لا غنى للبشرية عنها إذا ما أرادت أن تحقق الأخوة وتنشر المحبة على مستوى المعمورة.

أما الأستاذ عبد القادر الإدريسي وجواد الفلاق فيحلقان بنا في عوالم ثلاثة أعلام معاصرين أثروا في الفكر الإنساني والإسلامي، وهم فريد الأنصاري، والجابري، وطه عبد الرحمن. في باب الحضارة يسلط خلف أحمد أبو زيد الضوء على موضوع قلّ مَن كتب فيه؛ "السفارات الدبلوماسية في الحضارة الإسلامية" ويتحفنا بإضافات شيقة.

هل هناك أعضاء بلا فائدة؟ سؤال مثير يطرحه الدكتور ناصر أحمد سنه ويفاجئنا بمعلومات عجيبة. هل استطاع الإنسان أخيرًا أن ينشئ محطات كهربائية في أعماق البحار، أم هناك كائنات أخرى تنتج الكهرباء في تلك العوالم المجهولة؟ الإجابة في مقال محمد سلمان المندعي. هل تعزف الحشرات؟ سؤال يجيب عليه مجدي إبراهيم في مقال "الحشرات العازفة".

السيدة نهى الفخراني تسأل "من أنا؟"، حوار مثير يسبر أغوار النفس البشرية بعمق. الدكتور عز الدين عناية يحلل أحد الكتب الصادرة في الغرب والذي يطرح سؤال "لماذا عالم اليوم أكثر تديّنا؟" ليضيف مقالاً جديدًا إلى المقالات الأخرى التي جاءت بصيغة السؤال في هذا العدد. ليس هذا فقط، بل هناك مقالات قيمة أخرى لم تسعفنا المساحة لذكرها تنتظر أحبابها القراء بفارغ الصبر.

مرة أخرى نهنئ أنفسنا كتّابًا وقرّاء وخدامًا لمجلة حراء، بحلول عامها الخامس عشر، ونسأل المولى تعالى أن يشمل هذا الخير برعايته الخاصة. ■

المحتويات

أيام نحلم بها / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
تأثير اللون على شخصية طفلك / د. محمد السقا عيد (علوم)	٥
الرحمة في أبعادها الإنسانية / د. عبد القادر طاهري (قضايا فكرية)	٩
شتلة الخير / حراء (ألوان وظلال)	١٢
الحياة المعاصرة وموروثنا القيمي / مجيد الحداد (قضايا فكرية)	١٣
من أنا؟ / نهى الفخراني (أدب)	١٦
محطات كهربائية في أعماق البحار / محمد سلمان المندعي (علوم)	١٩
من الخادم؟ / عبد العزيز معروف (تحليل كتاب)	٢٣
السفارات الدبلوماسية في الحضارة الإسلامية / خلف أحمد أبو زيد (تاريخ وحضارة)	٢٧
المنهج الانتقائي النقدي / د. خالد راتب (قضايا فكرية)	٣٠
كيف نصمد أمام الأعاصير؟ / فتح الله كولن (قطوف)	٣٢
بين الجابري وطه عبد الرحمن / جواد الفلاق (شخصيات)	٣٤
أعضاء بلا فائدة / د. ناصر أحمد سنه (علوم)	٣٨
الصداقة من العنف إلى اللاعنف / حمزة بومليك (قضايا فكرية)	٤٢
فريد الأنصاري والشخصيات الخمس التأثر والتأثير / عبد العزيز الإدريسي (شخصيات)	٤٦
الحشرات العازفة / مجدي إبراهيم (علوم)	٥١
ما تبقّى من أسناني / أميرة الوصيف (قصة)	٥٥
قدر الرحيل / حراء (ألوان وظلال)	٥٨
لماذا عالم اليوم أكثر تديّنا؟ / عز الدين عناية (تحليل كتاب)	٥٩
السكينة / محمد عيسى (شعر)	٦٣

أيام نحلم بها

إن الإحساس بالمستقبل، وفَهْمَه بأعماقه الخاصة به، قد يبدو الآن حلمًا بعيدَ المنال، ولكنه حقيقة وواقـع، حقيقةٌ ينبغي تغذيتها بالإيمـان والأمل والعزيمة والإصرار. ولعل أبرز سـمات المسـتقبل الذي نحلُم به هو عودة السكينة والهدوء والاطمئنان الذي تفلَّت من بين أيدينا منذ قرون، وسـمَّيتُ هذه الأمور بـ"أبرز سـمات المستقبل"، لأنها أكثر ما نفتقده ونتُوق إليه في هذه الأيام.

أجـل، إن أكثـر مـا نتـوق إليه في هـذه البلاد، ونحـس بفقدانه فـي صدورنـا المتلهفـة، هو السـكينة والهـدوء والاطمئنـان، تلك

الأمور التي مزقّها ضجيج المحرِّكات، وخرقتْها أصوات الأبواق، وبعثرتها ضجة الإذاعات، وأربكها دوي الرصاص وطلقات السلاح، ولا نزال نشعر بفقدها في قلوبنا، من جراء نعرات القاتلين وآهات المظلومين، ولم نبرح على مر السنين نعيش في دواخلنا الأمل في أن يأتي الأوان الذي تلتقي فيه رغباتنا وأحلامنا بها، كأنه لذة نتذوقها أو عطر نستنشق شذاه أو موسيقى نرتشفها.

وأعتقد أن جُلَّ من ارتشف مَعَنًا من المنبع نفسه، ينتظر متوقعًا مثل هذا الصمت والهدوء، ومهما عددنا نيل مثل هذه الحظوة التي تُعادل الدخول في بستان أو روضة بل في جنان الفردوس، صعبًا؛ فإنني لا أشكّ أن هذا سيكون -بإذن الله- وضْعَنا الطبيعيَّ والدائم. إن الذين يَعتبرون تحقُّق مثل هذه الأمور في أجواء أيامنا المظلمة من باب الأمور الخيالية؛ من المحتمل أنهم لن يعرفوا قيمة السكينة والهدوء، إذا جاء اليومُ الذي يتنفسون فيه هواء ذلك الجو، ويرتشفون من معينه، ولن يقدِّروا هذه المعاني حق قدرها في ذلك اليوم أيضًا، بل ربما لن يشاهدوا في ذلك اليوم إلا الظلام، ولن يفكروا إلا بالظلام، ولن يعيشوا في عالمهم الروحي إلا ظلامًا دامسًا لا ينفكّون عنه أبدًا.

والواقع أنَّ تخيُّل حياة تعمها السكينة ويسودها الاطمئنان، ثم الشعورَ والإحساسَ بها، منوطٌ نوعًا ما بالتخلص مما يحيط بنا من أجواء غائمة بالدخان، يغلب عليها الصخب والضجيج، وتسودها العداوة والبغضاء، وينتشر في أرجائها القيح والدماء، وسط سيلان الدموع ونزيف العبَرات. أجل، إننا بوضعنا الحالي محرومون من السكينة والأمن والهدوء، محرومون منها إلى درجة أننا فقدنا الشعور بها ولو بعض الشيء، اللهم إلا إذا قضينا بضعة أشهر من السنة في بستان مسوَّر، أو خليج هادئ، أو في بحبوحة البحر المحيط على متن سفينة عابرة للقارات، بل إن مثل هذا الانزواء قد لا يكون كافيًا للشعور بالسَّكِينة الحقيقية، وأحسب أننا نحتاج لكي نشعر بها على وجه كامل، إلى أشكال عديدة من التجرد الحقيقي، وإلى أجواء تَجيشُ

إننا لا نشك في أن أرواحنا ستتدفق مرة أخرى بالسكينة والطمأنينة، وأن ما وراء ستار الأشياء والأحداث سينكشف لقلوبنا، وأن الحقائق المجردة ستسبق الأسباب فتهمس لنا بأمور أكثر مما همست بها إلى الآن.

وتُحلِّق فيها جوانبنا الإنسانية.

لقد أتى على هذه البلاد حين من الدهر، خيَّم عليها مثل هذا الجوِّ من السَّكينة والأمان الروحاني؛ فقد كانت تباشير الصباح مثل براعم بيضاء ناصعة تشق طريقها لتغدو زهرة، في حيوية سكرى، وكانت شموس الضحى مواعيد صخب تعبر عن شوق للعمل والنشاط الدؤوب، وكانت أوقات الغروب أزمانًا نعيش فيها فرحة العيد في بيوتنا التي هي أكثر دفئًا ونعومة وحيوية من أعشاش الطيور، وكان جوف الليالي أنهارًا للواردات المعنوية الفياضة بمشاعر الخلود وأشواقها.

صحيح كانت لنا جوانب نقص تحتاج إلى ترميم وإصلاح أيضًا، إلا أن كل أفراد أمتنا في كل وحدة من وحدات الحياة، من أهل القرى والمدن، والمراكز والأرياف، والمدنيين والعسكريين، والشباب والمسنين، والعلماء والعامة؛ كانوا بجميع قطاعاتهم يتحلون بالعزيمة والأمل، عشاقًا للسلام والأمن، يبدو على حالهم أنهم أفراد أمة وجزء من بلد ينعم بالسلام؛ فما كان لضوضاءَ سخيفةٍ ولا صرخة طائشة ولا حماس أَهْوَج أن يفسد وقْعَ الشِّعر الهادئِ هذا، ولا يستطيع صوت أو نفَس أجنبي أن يتسلل إليها ويخترق أجواءها المشحونة بالسكينة، وكانت تهُبُّ من جل الأطراف نسماتُ السكينة والطمأنينة، حاملةً معها شذى روح الأمة.

إن المستقبل حفيد الماضي، وبقدر ما يستطيع أن يتمثل ما وَرِثَه من الماضي من ذلك الجوّ الخاص الذي يهُبُّ بنسائم الأمن والسلام العبِقة الشذيَّة -وكلي أملٌ في تحقق ذلك- فإنه يمكن لنا أن نعيش مرة أخرى،

hiragate.com

تلك الأيامَ الخالية السعيدة التي عشناها في الماضي. إذ إنه لن تكون في تلك الشريحة الزمنية السعيدة تصادم بين شرائح المجتمع ولا شِجار، ولن يسمع فيها صيحات الظالمين ولا أنات المظلومين، ولن يتردد في جنباتها صراخات تخدش الأرواح، ولا تنهّدات تنفطر لها القلوب، ولن تسيل الدماء وينتشر القيح، وسيتوقف سيل الدمع الهادر، وسيندحر الإرهاب وتتوقف الفوضى التي تغرق المجتمع كل يوم في الهموم والأحزان، لن يكون كل ذلك، بل سيتلبس ابن هذه الأمة حالته الأسطورية تلك، ويعيش حقبة من الهدوء والسكينة لِما يرده من وراء السماوات، ويَنْصَبّ في فؤاده أطياف من المحبة والتسامح.

أجل، سيصمت الحقدُ وتسكت البغضاءُ والعداوات في ذلك اليوم، أو -على الأقل- سينخفض صوتها، وسيتدفق إلى قلوبنا من كل ما نشاهده من المناظر، وكل ما نسمعه من الأصوات والأنفاسِ أمورٌ أخروية، وسنستمع إلى كل الوجود ونشعر به وكأنه موسيقى ننتشي بها، وفي ظل ذلك الكم الهائل من أشكال الجمال التي تغمرنا من رؤوسنا إلى أقدامنا، سنرى الوجود كله جميلاً، سنفكر بالجمال، ونعيش في الجمال، وسنفسر كل شيءٍ على حسب ما في دواخلنا من الجمال، وسنستفيد من كل مزايا كوننا مؤمنين، ونصمم حياتنا المؤقتة على حسب الأبدية.. ومن يدري، لعلنا نُسمع أرواحنا معاني غايةً في منتهى السِرّيَّة، بحيث لا يكشفها صوت أو يعبر عنها كلام، بل تعجز كل الكلمات عن التعبير عنها، وسنصل إلى هذا الزمان والجو السِرّيّ الذي لوَّنَّاه بأعماقنا الإنسانية، وسنُحس بجميع الناس بل بالكون أجمعَ بلذة تملأ قلوبنا، وسننغلق كليًّا تجاه بعض الكلمات والمَشاهد المؤذية الناشئة من الطبيعة الإنسانية، وسنقضي أعمارنا في خضم الأذواق وكأننا نقوم بسياحة في ممرات الجنان، لأن هذا الهدوء والسكينة موجودان أصلاً في كل جزء من ثقافتنا التي ورثناها من الماضي، ويشَكّلان بُعدًا مهمًّا من أبعاد سجية أمتنا.

أجل، إن لكل حقبة زمنية قِيَمًا، ولها نجاحات تَرفع من قيمتها، ومعاني يحملها الكون وفقًا لزاوية نظر الذين تمثَّلوا تلك القيم وحققوا تلك النجاحات، وأفكارًا عمَّقت تلك المعاني من خلال مختلف التفسيرات لتلك المعاني، كما أن لكل واحد من هذه الأمور لذة لها تأثير عميق وطعم ونشوة، ولكل منها صدًى حلوٌ وذكرى طيبة في أرواحنا، إننا نحس ونشعر بجميعها دفعة واحدة، ونعتقد بأننا سنحس ونَشعر بها في المستقبل الذي نؤمن بأنه آتٍ لا محالة، بمعنى أننا لا نشك في أن أرواحنا ستتدفق مرة أخرى بالسكينة والطمأنينة، وأن ما وراء ستار الأشياء والأحداث سينكشف لقلوبنا، وأن الحقائق المجردة ستسبق الأسباب فتهمس لنا بأمور أكثر مما همست بها إلى الآن.

وفي مستقبل قريب جدًّا سيُهرع معظم الناس إلى الهدوء والأمن والسكينة أكثر من أي شيء آخر، وستكون متنفَّسًا في معظم الأمكنة، ويُلحَّن أكثر الأنغام إثارة حولها، فمنذ أن نزلت الإنسانية إلى مسرح الوجود وهي تواصل وجودها رغم كل أنواع الحرمان، ولكنها لم تستطع أن تتخلى عن السكينة والمحبة والأمان، وليس من الممكن أن يستغني العالم عن هذه الأمور في حقبة أخذت تنحو فيها منحى العولمة ويتداخل فيها الناس.

والواقع أن هذه المشاعر والأفكار، أخذت منذ الآن تتجذر في أرواح البعض منا، ومن ثم لا أشك مثقال ذرة في أن الأعوام المقبلة ستكون بمثابة مشاتل لها، فقد انتقشت هذه المعاني في قلوبنا حتى بدأنا نحسّ بطعمها في ألسنتنا وبحماسها في قلوبنا، ومن المأمول في هذه الأمور التي نَشعر بكل منها وكأنه أمل أو حماس أن تُمطِرَنا بسيلٍ من الأوامر المتعلقة بمستقبلنا، وأن تتحوَّل سفوح قلوبنا إلى مروج ذهبية تنمو فيها المحبة ويزدهر الشوق والتسامح. ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة "سيزنتي" التركية تحت عنوان: Hülyalarımızdaki Yarınlar، العدد:١٩٨ (يوليو ١٩٩٥). الترجمة عن التركية: أجير أشيوك.

hiragate.com

د. محمد السقا عيد*

تأثير اللون على شخصية طفلك

هل تعلم أن ألوان غرف النوم لأطفالك تؤثر على شخصيتهم؟ لقد أكدت الدراسات النفسية أن اختيار اللون يؤثر بشكل مباشر على المزاج والسلوك والصحة، كما يؤثر على المخ والجسم ويقوم بدور المحفّز لهما. ووجدت الدراسات العلمية أيضًا، أن بعض الألوان تساعد على تحسين عادة النوم، وتزيد من قوة الذاكرة وتعزز أداء العقل.

تأثير الألوان على نفسية التلاميذ

ثمة علاقة قوية بين الألوان والحالة النفسية للإنسان؛ وقد أكد ذلك عديد من علماء النفس بأبحاثهم ودراساتهم الأكاديمية، منهم الدكتور "ألكسندر شاوس" مدير المعهد الأمريكي للبحوث الحيوية الاجتماعية، الذي كتب عن تداخل الطاقة

اللونية والضوئية مع الغدتين النخامية والصنوبرية، وإفراز هرمونات بعينها تقوم بإحداث مجموعة من العمليات الفسيولوجية التي تسيطر على الحالة المزاجية والسلوكية.

وما كتبه العالم الصيني "فينج شوي" (Fang Shui)، حول كيفية اختيار اللون المناسب لإحداث تغيير إيجابي في الحالة المزاجية، وذلك من خلال بحثه "لوِّن حياتك"، وكذا ما كتبه عالم النفس الدكتور "غاديلي" حول أهمية استخدام الألوان في الحد من الظواهر النفسية السيئة، التي يعاني منها كثير من الأطفال والصبية.

أبحاث حديثة أفضت نتائجها إلى "أن الاستخدام الصحيح للألوان، يمكن أن يزيد من التركيز والنشاط والقدرة على التعلم والفهم والتذكر بنحو ٥٥-٧٨٪".

فماذا عن التأثيرات اللونية على الحالة النفسية للتلاميذ؟ وكيف نستخدم الألوان بشكل صحيح لتعزيز الحس الجمالي، والحفاظ على الاستقرار النفسي في المدارس؟

استمرت الأبحاث في الكشف عن أسرار الألوان وأهميتها العلاجية، إلى أن وصلت ذروتها خلال العقود الثلاثة الماضية، وبفضل معطيات التقنية المتقدمة وما استُحدث من تطبيقات علمية، ثبت جدواها وأهميتها، إذ صار اختيار اللون جزءًا رئيسًا من حياتنا اليومية؛ في الملبس والمأكل والمشرب.. حتى في اختيار جدران المنازل والمنشآت العامة والخاصة. ولتعدد أسرارها وما كُتب حولها من دراسات وأبحاث، وما ظهر من نظريات، فإن الألوان عِلمٌ له أسسه ومبادئه، وفنٌّ يداعب قريحة المبدعين.

تأثير الألوان على شهية الأطفال

١-الأحمر والبرتقالي: للألوان تأثير بالغ على نشاط وشهية الأطفال؛ فيمكن للونين الأحمر والبرتقالي أن يفتحا شهية الطفل للطعام، فهما يرفعان الإحساس بالسخونة ويزيدان من الشعور بالجوع، ويؤثران على شهية الإنسان، لذلك تجد أن اللون الأحمر ودرجاته هو السائد في مطاعم الوجبات الجاهزة كافة، كونه لونًا يعد من فواتح الشهية، إضافة إلى درجات اللون البنّي ولكن بنسبة أقل.

ومن ثم ننصح الأمهات اللاتي يعاني أطفالهن من قلة الأكل، أن يجعلن ألوان الصحون على درجات البرتقالي أو الأحمر لتحفيز وفتح شهية أطفالهن. أما بالنسبة للألوان التي تضر بنفسية الطفل المريض، فنؤكد على ضرورة وجود توازن في الألوان التي يستقبلها الطفل، فننصح بضرورة عدم ارتداء الأطفال أو الكبار لونًا واحدًا لفترة طويلة، بل المهم أن يتلقى الأطفال -وكذلك الكبار- طاقات جميع الألوان.

٢-الأزرق والبنفسجي: لونان مسؤولان عن تنشيط إفراز المادة الكيميائية التي تساعد الإنسان على النوم، ولهذا ينصح أن تكون أغطية فرش الأطفال، وملابس نومهم، ودهان الجدران بهذين اللونين، مع مراعاة اختيار الدرجات الفاتحة منها.

٣-الأصفر: لون النشاط الذهني بالنسبة للأطفال، وهو لون يرتبط بالعمليات العقلية التي ترتبط بالمخ، فمثلاً إذا أردت من طفلك التركيز، والتفكير بشكل جيد، وتنشيط المخ، فيُنصح الاستعانة باللون الأصفر. أما إذا أردت أن يكون نشطًا ويصدر عنه حركة وطاقة، وتعمل عضلاته بشكل جيد، فعلينا تزويده باللون الأحمر، وإذا أردت أن تجعله مبدعًا ومفكرًا، وأن يتناول الطعام بشكل كاف، فعلينا باللون البرتقالي الصريح.

لون يفتح شهية الطفل للطعام، ويرفع الإحساس بالسخونة ويزيد من الشعور بالجوع، لذا ننصح الأمهات اللاتي يعاني أطفالهن من قلة الأكل، أن تجعل ألوان الصحون على درجات البرتقالي.

إذا أردت أن يكون طفلك نشيطًا ويصدر عنه حركة وطاقة، وتعمل عضلاته بشكل جيد، فعليك تزويده باللون الأحمر.

لون النشاط الذهني بالنسبة للأطفال، ويرتبط بالعمليات العقلية التي ترتبط بالمخ، فمثلاً إذا أردت من طفلك التركيز، والتفكير بشكل جيد، فيُنصح الاستعانة باللون الأصفر.

إن تغيير ألوان المنزل من الزاهية الصارخة إلى درجات الأزرق الباردة، يسهم في تحسين سلوك الأطفال، وكلما كان الطفل صغيرًا في السن كان الأثر المهدئ له أسرع مفعولاً.

يمكن الاستعانة باللون الأخضر للكتابة على اللوحات الجدارية، كونه من أكثر الألوان ثباتًا في الذاكرة.

الأزرق والبنفسجي لونان مسؤولان عن تنشيط إفراز المادة الكيميائية التي تساعد الطفل على النوم، ولهذا ينصح أن تكون أغطية فرش الأطفال، وملابس نومهم، ودهان الجدران بهذين اللونين، مع مراعاة اختيار الدرجات الفاتحة منها.

إن تأثير الألوان طبيًّا وعلميًّا يأتي في نهاية المخ من أسفل، وهو الجزء المسؤول عن العواطف والمشاعر التي لدى الإنسان منذ طفولته، بالإضافة إلى أن هذا الجزء من أول الأجزاء التي تتكون لدى الجنين في بطن الأم، لذلك تجد أناسًا يكرهون لونًا معينًا أو يرتبطون بلون آخر عند الكِبَر. كما أن الألوان مسؤولة بشكل رئيسي عن عمل الغدد في جسم الإنسان؛ فالسعادة والحزن والنوم جميعها مشاعر تتأثر بالألوان مع تأثيرها على هذه الغدد. لذلك من المهم أن تعرف الأمّ ما يحتاجه جسم طفلها، أو ما يحتاجه جسم الإنسان عمومًا.

وننصح الآباء والأمهات بضرورة تعريض الأطفال لجميع طاقات الألوان باتزان في ملابسهم في غرفهم وفي أطباق الأكل، علاوة على ألوان الأطعمة التي يتناولونها، لأن الألوان تدخل إلى جسم الإنسان أيضًا بطريقة أخرى عبْر الجهاز الهضمي بخلاف العين.

الألوان تحسن من سلوك الأطفال

للألوان تأثيرات إيجابية على بعض حالات العنف لدى الأطفال؛ فقد أظهرت الدراسات التي أجريت على أطفال يعانون من مشاكل نفسية، أن تغيير ألوان المنزل من الزاهية والصارخة إلى درجات الأزرق الباردة، يسهم في تحسين سلوك هؤلاء الأطفال. وكلما كان الطفل صغيرًا في السن، كان الأثر المهدئ له أسرع مفعولاً. ومن ناحية أخرى فالطفل ذو السلوك الهادئ أو الخجول، يفضل استخدام مخطط لوني نشط يساعد على تنشيط الدورة الدموية لديه، لكي ينعكس ذلك إيجابيًّا على سلوكه مثل استخدام درجات اللون الأصفر، وكذلك بعض الرسومات على الجدران مثل رسم شاطئ جميل أو غابة بديعة التكوين.

وقد استخدم الباحثون اللون الأزرق الخفيف الممزوج مع عقاقير تجريبية؛ للكشف عن الأورام المبكرة في الرئة، كما استعمل اللون الأزرق للتخفيف من ألم الصداع النصفي والتهاب المفاصل.

وقد ظل الأطباء سنين يستخدمون اللون الأزرق لعلاج اليرقان الذي يصيب حديثي الولادة، ويتفادون بذلك القيام بإجراء عمليات دم خطيرة. كما وجد الباحثون في المستشفى العام في "ماساشوستش" أنّ داء الصدف الجلدي (Psoriasis) يستجيب جيدًا -وعلى نحو مذهل- لمزيج مكون من الأشعة فوق البنفسجية والعقاقير، وهو أحد العلاجات استعمالاً. وهناك اعتقاد عند أطباء المخ والأعصاب بأن اللون البنفسجي يساهم في تخفيف بعض آلام المخ.

ينصح بِطلاء غرف صفوف الحضانة باللون الأزرق أو البنفسجي الفاتح، لأنه يبعث على الهدوء، ويجعل الأطفال أكثر انتباهًا وتركيزًا.

الألوان الأنسب لحجرات الدراسة

إن اختيار الألوان المناسبة في دهان جدران وأسقف الحُجرات الدراسية، من الأمور الهامة التي يجب ألا يُستهان بها على الإطلاق، حيث تؤكد الدراسات على أهمية اللونين الوردي والأصفر ووجودها على جدران الغرف الخاصة بالطفل؛ لما للوردي من تأثير ملطف على الجسم حيث يقوم بإرخاء العضلات. وقد وجد أنه مهدّئ للعدوانيين الذين يميلون للعنف، لذا يكثر استخدامه في السجون، والمستشفيات، ومراكز الأبحاث، ومراكز علاج الإدمان.

أما اللون الأصفر فيعمل على زيادة مشاعر الفرح ويثير روح البهجة، كما أنه ينشط المخ ويقوي العقل، ويمكن ارتداءه لتحفيز الإبداع وتصفية الذهن لا سيما عند الإصابة بالتوتر العصبي. بالمقابل، ينصح بِطلاء غرف صفوف الحضانة باللون الأزرق أو البنفسجي الفاتح، لأنه يبعث على الهدوء، ويجعل الأطفال أكثر انتباهًا وتركيزًا. ولا ينصح بالأبيض والرمادي، لأنهما غير مؤثرين. ويمكن الاستعانة باللون الأخضر للكتابة على اللوحات الجدارية، كونه من أكثر الألوان ثباتًا في الذاكرة. وتبدو الألوان وكأنها تعكس عبقرية الطفل وذكاءه، لكنها قد لا تعكس حالته النفسية. هذا وقد لوحظ أن الأطفال في معهد السرطان يستخدمون الألوان البهيجة، بعيدًا عن الأسود والأبيض اللذين يعكسان ملاءات الأسرة التي تعني المرض. وقد فسّر البعض لجوء الطفل للألوان المبهجة برغبته في طرد الألم.

اللون الأصفر يعمل على زيادة مشاعر الفرح ويثير روح البهجة، كما أنه ينشط المخ ويقوي العقل، ويمكن ارتداءه لتحفيز الإبداع وتصفية الذهن لا سيما عند الإصابة بالتوتر العصبي.

تنمية الحس الجمالي لدي الطفل

في بحثه القيم الذي يحمل عنوان "تنمية السلوك الجمالي في مجال التربية الفنية"، يقول الباحث جاسم العبد القادر: إن تقديم الرؤية الجمالية في العملية التعليمية منذ البداية تجعل التلميذ يتشبَّع بها، وتستحوذ على عقله وتفكيره وخياله، وتصبح جزءًا منه لا يستطيع أن يتخلَّى عنه، وتنعكس بالتالي على تعبيراته الفنية وسلوكياته في تعامله مع الآخرين.

إن المعلِّم الذي يسعى إلى الارتقاء بالفكر العقلي لدى تلاميذه، هو من يُنمّي أولاً خبراته في تنمية الحس الجمالي، ومن ثم يستطيع توظيف التناغم اللوني في العملية التعليمية وفي كيفية السيطرة على التلاميذ وجذبهم إلى الدروس التعليمية، وكذا في المحافظة على صحتهم النفسية وتحقيق التوازن السلوكي لديهم. وقد أكدت دراسة أجراها "ترافيس" أن الألوان تضفي على وسائط التعليم الجاذبيةَ، فالصورة الملونة أكثر بقاء في الذاكرة من الصورة المرسومة أو المخططة.

ومن خلال الألوان المفضلة تُعرَف الأذواق، ويُقاس مدى الحس الجمالي ومستوى الاستقرار النفسي والاندماج الاجتماعي. ■

(*) استشاري في طب وجراحة العيون / مصر.

د. عبد القادر طاهري*

الرحمة
في أبعادها الإنسانية

لماذا اعتُبرت الرحمة من المشترك الإنساني؟ ولماذا كانت الحاجة إلى الرحمة أكيدة أكثر من أي وقت مضى؟ من يتأمل النصوص القرآنية الواردة حول الرحمة، يستخلص كثيرًا من عناصر التعريف التي دل عليها منطوق الآيات. فحين نستنطق تلك الآيات المحورية المؤسسة لخصائص المفهوم، فإنها تمدنا بعناصر التعريف، والأمر هنا يتعلق بالآيات البينات التالية التي يقول الله تعالى فيها: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾(الأنعام:٥٤)، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾(غافر:٧)، ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾(الأنعام:١٤٧).

إن الرحمة في الأصل، صفة من صفات الله تعالى، اشتق منها اسما "الرحمن الرحيم" وهو الذي دل عليه، والرحمة لا تنشأ عن رقة قلب نحو مرحوم، بل هي تجلٍّ لإرادة الله تعالى ومشيئته في الإنعام بإيصال الخير للخلق أجمعين بدون مقابل، كما أن الرحمة تتميز بالاتساع والشمول وعدم الانقطاع، وأن الله كتب على نفسه أن يرحم كل خلقه؛ الطير والإنس والجن. إن الله ﷻ أضاف الرحمة إلى نفسه، من حيث إنه أصلها، وما أودعه منها في المخلوقات ليس إلا قبس من تلك الرحمة المطلقة، به تتراحم إلى قيام الساعة.

رحمة الخالق إذن تعني إرادة الله إيصال الخير للخلق إحسانًا وإنعامًا على الدوام. فإرادة الإنعام والإحسان من صفات ذات الله تعالى "لم تزل ولا تزال" -يقول ابن عربي[1]- لأنها متعلقة بذاته تعالى، فهي منه كما فهم من القرآن نعمة وإحسانًا، وهي من المخلوق شفقة ورقة.

إذن، نحن أمام مفهوم قرآني ممتد ذي أبعاد عقدية وأخلاقية، لا ينحصر أثره في فئة دون أخرى، وإنما يمتد ليشمل الإنسان العاقل كما يشمل المخلوقات كلها، لأن الله الذي خلق الكون وأوجده من العدم، أودع فيه تلك القوانين الضابطة التي ترجعه إلى التوازن حين يميل الفعل الإنساني وينزلق نحو الفساد والإفساد. لهذا ظلت الرحمة مددًا ربانيًا لا ينقطع، ولما كانت كذلك، اعتبرت في العلاقات الإنسانية حالة من الرغبة في إيصال الخير إلى الآخرين بدافع الشفقة والعطف.

الرحمة من المشترك الإنساني

يحفل الخطاب القرآني بمفاهيم ذات أبعاد إنسانية عالمية، لا ينحصر أثرها على طائفة المسلمين، بل يمتد ذلك الأثر ليشمل العالمين، وهي مفاهيم متناثرة في القرآن المكي والمدني على السواء، كالعدل والتكريم والرحمة والحرية والإرادة.. وكل مفهوم منها ينطوي على مفاهيم مرادفة له، أو مجلية لمعناه، أو مقربة لتنزيله، أو مبددة لما يعارض استغراقه.

والرحمة من ضمن المفاهيم الإنسانية المشتركة، ذات الحمولة العقدية والأخلاقية، حيث أودعها الله ﷻ في خلقه لتنزل إيثارًا وإحسانًا وإنعامًا ورعاية.. وتنزّلها يتأسس على قاعدة الوحدة والاتصال والتكامل الإنساني، لأن الذي يستشعر الوحدة المتكاملة يعمل بالكاد على الاندماج مع الآخرين. فالإنسان وحدة متكاملة في الأصل، وعليه أن يستثمر إحساسه بالآخرين وإحساس الآخرين به، استثمارًا يمكّن من تنزيل صفات الجمال والجلال أفعالاً وسلوكا وتصرفات، تعود بالنفع والخير عليه وعلى غيره.

إن تنزيل الإيثار والعفو والإحسان أفعال تدل على تمكن الإحساس بالرحمة، حيث إن المرء حين يحس فينقاد طواعية لفعل الرحمة، فيرحم ابتداء، وينساق للإنجاز طواعية، إذ قدومه على الإنجاز بلا تردد يعود إلى ما أودعه فيه من القابلية للإحسان، كما يعود إلى عقيدته في الأسماء والصفات.

ولما اعتبرت الرحمة مرتكزًا في المشترك الإنساني، فهذا يومئ إلى أصالتها الربانية، واشتراك الرسل في نفس الصفة، واشتراك الكتب في الدعوة إليها، ومن ثم فقد تميزت بالاستمرارية والعموم والاستغراق. فما قد يطرأ من القتل أو الدمار أو الكراهية أو الأنانية المفرطة، لا يعبر عن المفهوم في امتداداته، وإنما يعبر عن خلل ما في منظومة الرحمة سببه انحراف في التربية، أو تلاعب بالقوانين الضابطة، أو انزلاق في التنزيل أفضى إلى سوء مآل.

الأبعاد الإنسانية المعبرة عن الرحمة

إن كلمة "الرحمة" في سياقاتها المختلفة، تكشف عن أبعاد إنسانية عظيمة تعبر عن هذا المشترك، اقتضتها إرادة الله في تصريف الرحمة على الخلق أجمعين، ومن تلك الأبعاد:

١- صراحة ووضوح القرآن الكريم بصدد عموم رحمة الله، وأن رحمته ليست منحصرة في جنس أو عرق دون غيره، أو قبيلة أو أمة دون غيرها، لأنه لو انحصر أثرها على جنس دون جنس أو عرق دون عرق، لكان الآخرون تحت آثار ضدها وهنا يقع فهم الخطاب على أن الرحمة خصت بشعب دون غيره. لهذا حسم القرآن هذا الأمر، فنص على شموليتها للعالمين دون تمييز ابتداء، وفي هذا يقول الله تعالى:

hiragate.com

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(الأعراف:١٥٦).

٢- القرآن يعلنها واضحة، ويصرح بها جلية ناصعة وبشتى الصيغ؛ أن الرحمة شاملة ونافذة في الخلق شمول الرسالة المحمدية، شاء من شاء وأبى من أبى.. فليست رسالة محمد بن عبد الله ﷺ إلا ضربًا من شمول الرحمة في الخلق بغض النظر عن عقيدتهم وجنسهم وعرقهم، حيث إنها جاءت للخلق كلهم، ولا يحرم من بركاتها ونفحاتها إلا من أبى. فأثر الرحمة على الخلق كأثر أحكام الشريعة المحمدية على الخلق، فمن أراد نفحاتها عمل لها وبحث عن مواردها، ومن أباها لم يصادف طريقها. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(العنكبوت:٢٣).

٣- الرحمة بهذا، تأخذ بعدًا عالميًّا كونيًّا ينطلق من عالمية الإسلام التي هي خاصيته، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧)، كدلالة على ربط الرحمة بالعالمية، من أن الرحمة تأخذ عالميتها من عالمية الإسلام، إنها ليست حكرًا على المسلمين حتى لا تأخذ بعدًا قوميًّا أو عقديًّا. لهذا، فتحليل نسق الرحمة في نسيج القرآن، يجعلها مدخلاً للوعي بعالمية الإسلام، في مقابل مختلف القراءات الظاهرية المنغلقة التي تحصر الرحمة في المتعبدين ليس إلا. فالرحمة في تنزيلاتها تسعى لتكرم الإنسان وتحرره من كل أشكال العبوديات، لأنها الهواء الذي يتنفس منه الجميع رغم تباين مشاربهم العقدية والفكرية والعرقية واللغوية، وفي هذا يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(يونس:٥٧).

إن الرحمة ليست حكرًا على المسلمين، وليست حكرًا على غير المسلمين، بل هي مشترك إنساني من المفترض أن يفعّل ليصلح أعطاب التواصل البشري والحوار الهش، ليُصلح القائمين على العنف والغلو والطائفية والمذهبية التي تخترق الفكر الإنساني، وتهتك يوميًّا بسلامه في صورة حروب وتدمير وظلم لا ينتهي.. فالرحمة لا تأخذ مصداقيتها إلا من عالميتها، فلو كانت

الرحمة تراعي الآخر المحتاج وتعيره مزيدًا من العناية، لأنها دفع داخلي نحو تعديل السلوك الأناني، والرقي بالإيثار نحو مقام الاشتراك في الهم والحزن.

خاصة لصارت امتيازًا لفئة على أخرى، وحاشا لله العادل أن يسير بمنطق التمييز في الرحمة، لأنه كتب الرحمة على نفسه تجاه الجميع، وجعلها تسع كل شيء في أكثر من آية.

وفي هذا الشأن يقول المقرئ أبو زيد: "القرآن واضح وصارم بصدد عمومية الرحمة، فهو يخاطب بها الناس جميعًا، لا جنسًا ولا طبقة ولا قبيلة مخصوصة محظوظة"(٢).

٤- الرحمة في النسيج القرآني لها تعلق بالسِّلم، كما أن لها تعلقًا بعالمية الإسلام، لأن تفعيل الخلق، جنوح نحو السلم، من حيث إنها تعبر عن الرأفة والشفقة والرعاية والإحسان، وكلها مفاهيم ذات مغزى سلمي. فالخطاب بالرحمة إذن، أصل أصيل في النظام التشريعي الإسلامي، وإن الهدف من تنويع الصيغ الخاصة بالرحمة في الخطاب القرآني، تحصين الذات المسلمة من مفاهيم العنف والغلو والتطرف، وتربية النفس المسلمة على منع صاحبها من الاجترار وراء دعوات التسلط والغلبة بالقوة، لأن مثل هذا ينافي الرحمة.

٥- فيها الرد القاطع على من يدعي الشر على الله تعالى من أصحاب النظرية القديمة أو الحديثة التي تلبس الذات الإلهية لباس الإساءة، ظنًّا منها أن ما يقع في الكون من الكوارث وما يترتب عنها من التدمير والقتل والفناء والخراب، دال على أصالة الشر في من نسبت إليه تلك الوقائع.

فمنطق الرحمة في القرآن يتدرج بالمسلم ترقيًا، ليقترب من النموذج الأعلى في تنزيل الرحمة، لأن الغاية أن يصاغ سلوك الإنسان بخلق الرحمة، لأنه بها يحكم الانزلاق الخاص والعام نحو العنف والفوضى والتغلب. فالرحمة تراعي الآخر المحتاج وتعيره مزيدًا

hiragate.com

من العناية، لأنها دفع داخلي نحو تعديل السلوك الأناني، والرقي بالإيثار نحو مقام الاشتراك في الهم والحزن.

فمقصد الرحمة يستغرق كل أبواب الشريعة بلا استثناء، إما من حيث دلالة النصوص عليه كليًّا أو جزئيًّا، أو من حيث استحكامه في تنزيل الأحكام، لأنه يروم جلب الخير والنفع ودفع الشر والفساد العام؛ ذلك أن الرحمة في القرآن مقصد مركزي يستوعب كل مجالات الكون بلا استثناء، من حيث إنها صفة ربانية، وخلق كل الأنبياء، ومنتهى ما يصبو إليه كل مخلوق رغم عناده وتمرده، ومأمول القرآن في صناعة إنسان الرحمة المهداة. فلما ملأت الرحمة الكون وحفظ بها وانتظمت في صورة نواميس، امتلأ الكتاب المسطور بها، لتكون قصد المتلقي كما هي قصد القرآن في الرعاية والحماية والحفظ. إن مقصد الرحمة في القرآن تصبو إليه الآيات ولا تتخلف، لأنه المعيار الحقيقي لفهم دور الدين في صلاح الإنسان.

يُفترض على المسلمين -إذن- أن يكونوا أولى من غيرهم في تبني الرحمة، لأنهم أمة الرحمة والهداية، وقد أنيطت بهم مسؤولية الرعاية والحماية، لكن لما كان المفهوم في أصله الرباني يتجاوز المسلمين لما هم عليه من التجزئة والكراهية المستحكمة والأنانية المفرطة، نرى أن المفهوم يتحقق عند أمم أخرى دونهم، وهذا ما يؤكد البعد العالمي للرحمة، وأنها من المشترك الإنساني. فمن تهيأ لها تصدر مشهد الحماية في العالم والرعاية والإحسان، بغض النظر عن عرقه أو دينه أو جنسه. فكيف نفعّل الرحمة في الواقع الوجودي الإسلامي والعالمي؟ وما الآليات الدقيقة لرفع منسوب الرحمة لمواجهة القسوة المتمظهرة في القتل والكراهية والعنف والتسلط والاستبداد والفساد وسفك الدماء؟ ■

(*) كاتب وباحث مغربي.

الهوامش

(١) الأمد الأقصى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، لأبي بكر بن العربي، ٨٧/٢.

(٢) عموم الرحمة وعالمية الإسلام، لأبي زيد المقرئ الإدريسي، ص:١٩.

شتلة الخير

بِيَد الرعاية والوصالْ
وبرَشْفَة الحُبِّ الزُّلالْ
رغم الجَهول وزعمه
ألاّ حياةَ ولا ظِلالْ
رغم القَسَاوة في الطبيعة
رغم تفكير الضلالْ
الروحُ عادتْ واستعادتْ
شتْلةُ الخير الجمالْ
بعدَ الجفافِ ترعْرَعَتْ
زَهَرَتْ ومالتْ في دَلالْ

***

مجيد الحداد*

الحياة المعاصرة وموروثنا القيمي

١ الإنسان بنيان فريد، والقيم الأصيلة التي جُبل عليها هي اللبنات المشيدة لهذا الصرح وهذا الكيان الفريد، وبها يشيد الصروح ويعلي القباب وينسج معالم الحياة الراشدة التي يعبر بها إلى عالم الخلد الحقيقي.

يجهل الكثير ممن اضطربت عندهم تراتبية المصالح، أن مستلزمات العيش الكريم في هذه الحياة الدنيا عبر تاريخ الوجود الإنساني منذ آدم أبي البشر إلى آخر نبض إنساني، هي على البساطة واليسر والوضوح والهدوء ما دامت سنن تلك الحياة ثابتة، ومقاصدها ومعانيها معلومة مبثوثة، وأسرارها وحكمها طويت في التراب، لأنه أصل الخلق ومعدنه. يكفي المرء أن يمعن النظر في مقاصد الأشياء التي تحوم به، ويعرضها على متطلبات عيشه، كي يوقن بعدها أن مساحة التوسع التي أحدثها الطموح المجنون اليوم، لم تجعله يهنأ ويطمئن لحاله، بقدر ما جعلته كائنًا جشعًا مسعورًا، همه المزيد من الاقتناء والاستهلاك، لأن رغباته لا حدود يمكن أن تقف عندها.. وهكذا تضيع القيم الإنسانية في أجواء الرفاهية المفرطة والبذخ الرهيب. وكلما اعتلى الطموح الدنيوي نسينا وتناسينا المعدن الأصيل، وصرفت عملتنا ورصيدنا الخُلقي وراء الجري والاقتتال على المزيد من الطرائد التي تحقق لنا ذلك الطموح.

لما خلق الله تعالى الإنسان لم يتركه سدى، بل حباه بألطافه ورحماته بأن هيأ له موطنًا يتلاءم مع بنيانه وبنيته،

ووهبه عقلاً وقلبًا يعقل بهما سر الوجود ومقاصد الحياة، وركّب فيه غرائز وأشواق متزنة ومنضبطة مع تكوينه وطموحه يندفع بها نحو جلب مصالحه التي يراها منسجمة مع كيانه، ونسج له من الشرائع والأحكام ما يعرّفه بحقوقه ويضمن له العيش بما يرضى عنه خالقه.. وهكذا فصّلت شريعة الإسلام في متطلبات الحياة، وهي على البساطة والتيسير والصفاء قبل أن تقلب إفرازات حضارة اليوم ومظاهر الحياة المعاصرة موازينها، فتعقد مسالكها، وتعكر صفاءها، وتربك أولوياتها، وتفسد نظامها بما أحدثته من أشياء ومفاتن ورغبات وأشواق جنونية.

فَهِم علماء الإسلام الفطاحل المبرزون في علم المقاصد لطائفَ التشريع، وصاغوا منهجًا رفيعًا مستوحى من هدي القرآن والسنة في تراتبية المصالح التي تقوم عليها الحياة؛ حيث إن تلك المصالح مبثوثة مؤصلة في الدين الذي ارتضاه الله للعالمين، وثابتة لا يمسّها التغير مهما تغيرت الأزمان والأوطان، وهي مرتبة إلى ضرورات وحاجات وتكميليات، تشكل نظامًا رائعًا للحياة يرقى على النظم المصطنعة المعوجّة، وينسجم مع قيم الفطرة الأصيلة، ويستوعب مطامح الإنسان وحقوقه وتطلعاته.. وإذا فُقد هذا النظام (نظام المصالح) فُقدت القيم واختلت الحياة، وفُتح باب العبث بمطامع الإنسان والطيش بأذواقه، واتجه في نهاية المطاف إلى المجهول، وتلك خلاصة ما أوصلتنا إليه اليوم الحضارة المعاصرة وما أفرزته من مظاهر.

قررت شريعة السماء الغراء وهدي الوحي الوضاء، أن الحياة الدنيا مرحلة كونية عابرة، وكل ما فيها من ركام الأشياء يغدو أشلاء، وكل ما حوته من قناطير الجواهر يستحيل هباء، وما شيد فيها من أبراج وصروح وقمم مآله الفناء.. وذلك في عشرات الآيات والأحاديث الشريفة، يقول الله ﷻ: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾(الكهف:٤٦)؛ لو تأمل الإنسان قوله تعالى "زينة الحياة" لأدرك أن الحياة مظاهر، وإذا اختزل الإنسان وجوده وأحلامه وآماله في المظاهر العابرة عبور الطيف في السماء، لم تدركه الباقيات الصالحات التي تبقى له رصيدًا يوم لا ينفع المرء مال ولا بنون، ولا شيء من مظاهر الحياة التي كان يستعرضها ويبغي فيها المجد والعلياء.

ضحالة الحياة الدنيا

إن مظاهر الحياة المعاصرة مجرد فقاعات تملأ الفضاء ما تلبث تنفجر فيخبو بريقها ويبقى الفراغ مخيمًا، كذلك شأن ما يتباهى به الإنسان اليوم من حطام الأشياء وركام الأزياء، وما يستعرضه من ممتلكات أو ليس إلا مستعارات، وإن كانت براقة وفاتنة ومغرية، تبقى في نهاية المطاف ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(النور:٣٩)، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾(الفرقان:٢٣)، وتظهر معاني زيف وأوهام المظاهر جيدًا عندما ينصرف الإنسان من نشوة الاستعراض المادي لتلك المظاهر، وينعزل وحيدًا متجردًا هو والتراب، آنئذ يصغر ويضعف وجوده وتتضاءل مطامعه المادية حين يعلم يقينًا أنه لم يرجع بشيء من تلك المظاهر، ولم يدخر منها مجدًا ولا علياء ولا اعتزازًا.

وفي عز الافتقار والحرمان المرحلي من الأشياء، ترق المشاعر، ويتهذب الوجدان، ويصحو في المخيال الزهد، وينتفض الورع، وتربو القناعة، ويتجسد الصبر والإحسان.. وكل المعاني الرفيعة التي تعرّف الإنسان بأصله وتعيده إلى سيرته الأولى، وتنسج له تلك المشاعر من المودة والرحمة والتسامح ما لا ينسجه الكبر والأنانية والترفع على الآخرين، وكلها لطائف من لطائف التشريع التي ما تفتأ تذكّر الإنسان بالتراب، تنجلي في سجود الإنسان على الأرض في الصلاة، وتجرده بلباس الإحرام في الحج، وإمساكه عن الملذات من مطعم ومشرب في الصوم، وزهده في ماله بالزكاة.

انفراط عقد منظومة القيم

أفول الفضيلة هي النهاية البئيسة لأطماع الإنسان التائه بين ركام الأشياء الفارغة، وحطام الأزياء التافهة التي لم تستطع بزخارفها أن تستر السوءة، وتعلي من جواهر الفضائل التي غرزت في الفطرة، بقدر ما كشفت الستار عن كل ما هو غير مستحسن عقلاً وشرعًا في الفكر والقول والسلوك، منبئة بانفراط عقد القيم. وبذلك تكون حضارة اليوم المادية بوسائل إعلامها الساحرة،

hiragate.com

وببهرجتها وسيولها الجارفة لكل موروث قيمي، قد نجحت في نزع القدسية عن المقدس، والمهابة عن المهاب، والهالة التي هالت على الشرفاء والأفاضل من الأنبياء والصالحين والعارفين الزاهدين معاقل القيم ومترجمي الفضيلة، في الفكر والمنطق والسلوك، ونصَّبت الرديء والوضيع والخسيس منصب الأكارم، وصارت للقيم معاني أخرى ومعايير مغايرة، واختلط الحق بالباطل، والجدّ بالعبث، والتنظيم بالارتجال، في صفحة وإشراقة واحدة جمعت كل المتناقضات، والنتيجة الاعوجاج والزيغ عن الهدى.

وبناء عليه، محال أن نسلك مسالك الرشد إذا لم نكتسب عوامل الممانعة لواقع هذا الزمان، ونحيي روح النقد فيما نتلقى من سيول المظاهر الحاملة لقيم الانحطاط التي حطمت كبرياء الإنسان.

والمؤسف حقًّا أن تلتمس تصرفات الناس أعذارًا، بأن تعرض رغباتهم في قالب مفاهيم التدليس كمفهوم الحرية الذي يعتبر مبررًا قويًّا لسلوك الناس، فصار كل تصرف مرفوض عقلاً وشرعًا، مستساغا في عالم اليوم، بدعوى تلك الحرية في الاختيار والتملك والاستعراض للمظاهر، سقط الإنسان في مستنقع الشهوات وورد من حنظلها، وصار قوته اليومي ما أفرزته وتفرزه تلك الحضارة من معرفة غير ممنهجة وقيم هابطة.

شذرات من ملامح العودة للفضيلة

بعد أن يشفي الإنسان غليل غرائزه ويروي عطشها، ويقبل بنهم على اقتناء ومشاركة واستهلاك أشياء الحياة، ويتخم حتى الثمالة من موادها مطعمًا ومشربًا وتفكها ومركبًا ومأوى وقرارًا وتجملاً، يستيقظ في وجدانه عطش جديد للفضائل ونهم فريد للقيم، ينبئه بحرمانه لعنصر الرقي والارتفاع إلى الطموح الحقيقي، ويقتنع حينها بأن مظاهر الحياة التي فرضتها حضارة اليوم، تبقى في نهاية المطاف مجرد فقاعات فارغة، تحمل الوهم بقدر تسحر الفهم، وتجيش الغرائز وتفسد الضمائر، تمتع الأبدان وتحرم الوجدان، تجمل المظهر وتشوه المخبر.. حينها يتفطن من يتفطن إلى خدعتها وكيف غيرت ببهرجتها نظم الحياة وحادت عن المنهج الرشيد،

محال أن نسلك مسالك الرشد إذا لم نكتسب عوامل الممانعة لواقع هذا الزمان، ونحيي روح النقد فيما نتلقى من سيول المظاهر الحاملة لقيم الانحطاط التي حطمت كبرياء الإنسان.

وأزاحت عن الوجود قيم الإنسان الأصيلة، وأفقدت المعنى والطعم الحقيقي للحياة وبوأت الصدارة لقيم الحياة المادية. حين يعي الإنسان ذلك كله، ويوقن أنه قد بعثر المجهود في طلب المفقود، سوف يتجه حتمًا نحو تصحيح المسار في درب الحياة.

لا بد أن يدرك الإنسان حجم الهوة بين الأصول والقيم الموجهة للفعل الإنساني، وما أحدثته نظم الحياة المعاصرة من رغبات وتطلعات زائفة صارت هم الإنسان ومطلبه، لا بد من ردم هذه الهوة وإلا سوف يتحول وجوده إلى العدم.

لا بد أن يلتقط الإنسان الإشارات، ويستنير بومضات الوحي كتابًا وسنة، فهو خطاب الزمان والمكان، وهو نبراس الهدى والمرشد إلى الجنان، ويكفي لهذا الإنسان أن يستضيء بأنوار الشريعة الغراء ويستظل بظلالها الوارفة، ففيها الملجأ والمأوى من جرافات الفضائل ومفسدات الأذواق.

لابد أن يتذكر الإنسان غاية وجوده في هذه الأرض وأدواره الحقة، وينسجم في حركاته وسكناته مع قيمه الأصيلة وإن أبت الحضارة المادية إلا أن تختزلها في الجانب الغرائزي البهائمي.

لا بد أولاً وانتهاء، أن يخلو الإنسان بنفسه؛ هو والتراب كلما استعصى عليه الفهم، وماجت في خاطره الأشواق للترف في النعم، وأسره جمالها وزخارفها، لا بد أن يدرك أن سبيل الاعتلاء القيمي لم يكن ولن يكون يومًا بالانخراط المفرط في الملذات وإن كانت مطلوبة بالقدر الذي يخدم الأصل ولا يحيد بالإنسان عن الرشد. ■

(*) كاتب وباحث مغربي.

نهى الفخراني*

من أنا؟

في جنح الليل.. الناس نيام.. والصمت مخيِّم على كل مكان، لا صوت سوى صوت نفْسٍ متسائلة.. صوت يستدعي العقل ويعتصره ليخرج من مخزونه إجابة سؤال مُلِحّ لا يظهر إلا في لحظة الخلاء والتأمل والتدبر؛ هو "من أنا؟".

النفس: أرجوك يا عقلي أجبني، من أنا؟ كل الكون يسير حولي بدقة فائقة وتناغم عجيب، ولا يشعر بالتيه غيري (أنا)؟

عقلي: لست وحدك أيتها النفس، بل كذلك "الإنسان".

أنا: نعم نعم، أنا سأقوم بدور الإنسان وأتحدث بلسان كثير من الناس؛ أنا أعمل وأتكاسل، أحب وأكره، أخطئ وأصيب.. تلومني نفسي فأسمع لها أحيانًا وأُسكِت صوتها أحيانًا أخرى.. فهي تؤذيني، لكنها للأمانة تذكرني وتصارحني بـ"ألست من أصحاب المبادئ؟".

أنا: نعم، ولكن تعوقني بعض مبادئي للوصول لما أريد، فأرجوك لا تلوميني يا نفسي.. ألم أفعل الخير وأعطف على الفقراء؟ ألم أرفض أكل الطعام غير الحلال؟ ألم أحافظ على صلواتي؟ ألم أتعب وأكدّ في عملي؟

نفسي: حسبك، لا تزكي حالك! فعلتِ الخير ولكن تباهيت أمام الآخرين بذلك؟ رفضتِ أكل الطعام غير الحلال ولكنك قمت بالغش في المنتجات التي تبيعينها للناس! صلّيتِ كثيرًا ولكن كنت مشغولة دائمًا في أمور الدنيا! وكان مظهرك أفضل من جوهرك.

أنا: كفى كفى.. فهمت ما تودين قوله. أما تعلمين أني مزيج من خير وشر.. كتلة من التناقضات تسير على الأرض.. إذ أرفض الظلم لنفسي وأوقعه على الآخرين.. أدفع أموالاً كثيرة من أجل الرفاهية وأدفع القليل لفقير محتاج! لا أحب أن يجرحني أحد أو يحرجني لكن قد أتسبب في ضيق للآخرين.. أكره النفاق لكني أستدعيه أحيانًا تحت مظلة المجاملة.

أنا: يا نفسي لقد وضعتني في مأزق.. كنت حادة وجادة.. تصارحيني بما لا أحب.. لهذا تكره نفوسنا نحن البشر مثل هذه الجلسات بدعوى أننا لا نحب جلد ذواتنا، وأننا ضحية لأكل العيش ولا بد من بعض التنازلات والتناقضات لأجل مستقبل أفضل.

أنا: الحقيقة أننا لا نحب اللوم والمعاتبة حتى لو لم تكن مسموعة للآخرين، حتى لو كانت نابعة من ضميرك الحي الناصح الأمين، الذي لا يفضحك على الملأ، لكن سرعان ما نَفْصل بطاريات هذا الضمير حتى يسكت ويكف عن اللوم.. ولكي لا نطيل، نهرب ونقدّم المبررات ونرتاح أو هكذا نبدو، بل والأسوء، السماع للنفس الأمارة بالسوء، فهي لا تلوم ولا تصارح لكنها تبرر وتبدو أكثر مرونة فلا تُعقِّد الأمور وتسير على أهوائنا.

أنا: المهم أن الحديث مع نفسي -وإن لم يكن بالشفاه- جعلني أتعب، لكن يبدو أني سأستمر في هذا الحوار لساعات أخرى.. يبدو أن خلوتي بنفسي وسط هذا الهدوء، سيحتم عليّ التفكير والمحاسبة بل

الناس نيام، والصمت مخيِّم على كل مكان، لا صوت سوى صوت نفْسٍ متسائلة يستدعي العقل ويعتصره ليخرج من مخزونه إجابة سؤال مُلِحّ لا يظهر إلا في لحظة الخلاء "من أنا؟".

والمكاشفة.. ماذا عندك؟ أراك تتأهبين لسؤالي.

نفسي: أنت أجبت عن سؤال "من أنا؟" باعتبارك عضوًا في أسرة وفي مجتمع، لكن هذا ليس كل شيء.. فمن أنت في هذا الكون الفسيح؟

أنا: كنت أهرب من تقويم نفسي بنفسي.. تقويم نفسي في دائرة صغيرة، لأفاجأ بسؤال فلسفي عميق.. أنا والكون؟

هذا الكون، لست فيه وحدي، بل تشاركني فيه الطبيعة. فأستظل بسماء عالية، أسير على أرض راسية، عليها جبال راسخة، حولي بحار وأنهار، يتعاقب عليّ الليل والنهار، أتمتع بالمناظر الخلابة، أنعم بأكل النباتات والحيونات.

إنني فعلاً مرفهة منعمة؛ فالطبيعة كلها مسخّرة لخدمتي وراحتي، لكن لماذا أظل حائرة؟ لماذا تزيد من حولي الأمراض والسكتات الدماغية والقلبية؟ لماذا تكثر الصراعات من حولي؟

نفسي تقاطعني: لا تزكي نفسك، فأنت طرف من أطراف الصراع.

أنا: حسنا لن أنسى.. نحن (البشر) مَن ندخل في صراعات لا تنتهي، ونبرر لأنفسنا أننا ضحايا لقمة العيش.. لكن إذا كان الأمر كذلك، أليست الحيوانات التي يحكمها قانون الغابة أفضل حالاً مني؟ وتنعم بالصفاء أكثر مني؟

نفسي: رغم نعمة العقل التي كرَّمك الله بها، تعتقدين أن الحيوان أفضل من الإنسان.

أنا: أرجوك دعيني أركز وأستجمع أفكاري.. ليس هذا ما أقصده، إنما أقصد أننا لم نسمع يومًا عن بقرة أصيبت بحالة نفسية لأن الأكل المتبقي أمامها قد لا

hiragate.com

يكفيها لليوم المقبل! أو غزال أصيب بجزع لأن صغيره مرض أو مات! أو حتى لم نسمع عن انتحار ملك الغابة إذا فشل في ملاحقة فريسته.. بل يقوم ويحاول ويحاول.. فهل تكون عقولنا وبالاً علينا؟ كيف تكون عقولنا التي كرمنا الله بها مصدرًا للقلق والتوتر؟! فبدلاً من الخروج من دوائر الصراع، تجد أكثرنا يؤسس لهذه الصراعات! ثم نعود ونشتكي من الأمراض النفسية والعضوية.

أنا: مضى وقت طويل في التفكير.. والعصافير خرجت في سرب كبير في مشهد بالغ الدقة والنظام. أشعر وكأنها تناديني تدعوني لأتدبر في المنظومة التي تسير وفقها ولا تحيد عنها.. لهذا فهي مرتاحة وتطير بسعادة بالغة.. عصفورتي عضو في سرب صغير، وأنا أعيش في سرب أكبر، الكل فيه يسبح بحمد الله.

أنا في هذا الكون سيد وعبد في آن واحد.. سيد على هذا الكون، وعبد لله.. الآن فهمت من أنا؟ أنا خليفة الله في أرضه.

نفسي: لا تنس أن شرف الخلافة شرف عظيم لا يناله كل البشر.

أنا: لكن ما الدور المنوط بالإنسان الخليفة؟

نفسي: ألم تدركي منذ قليل أن الكون بكل ما فيه مسخر لخدمتك؟ هذا يعني أنك ستوكل لك مهمة باعتبارك خليفة.. وقبل أن تشرع في أداء أي مهمة عليك التعرف على الأدوات التي تعينك عليها.

أنا: ما دوري؟ وما الأدوات التي تلزمني؟

نفسي: الإنسان مأمور أن يستخدم كل ملكاته في التعرف على الله، وعليه أن يستثمر عقله في تحقيق خلافته في الأرض، فهو أعلى المخلوقات رتبة، فعليه أولاً أن يحقق العبودية لله ليستحق هذا الشرف، ومن ثم يصل إلى الله بقلبه وعقله وعمله؟ ويقوم بعمارة الأرض وإقامة الحق عليها.

أنا: وكيف ذلك؟ وما السبيل؟

نفسي: سأضرب لك مثلاً: ورث أخوان متدينان قطعة أرض كبيرة لكنها متهالكة، فقاما بتقسيمها وأراد كل واحد منهما استزراع نصيبه.. فقام الأول بالاستعانة بالمختصين في هذا المجال، واستعان بالعديد من وسائل العلم الحديثة والآلات لاستصلاح هذه الأرض، كما خصص جزءًا من الأرض -مختبرًا- للدراسة المعملية على ما سيتم إنتاجه.

بينما الأخ الثاني استعان بالفلاحين والفؤوس والبذور لاستصلاح هذه الأرض، وبرر ذلك بأن الرزق من عند الله.

نفسي: ولكن أيهما حقق مفهوم الخلافة بشكل أفضل برأيك؟

أنا: أعتقد أن الأول استثمر عقله وطلب العلم واستغل التكنولوجيا في التعرف على الله.

نفسي: أحسنت.. الأول سعيه عبادة وتفكيره عبادة وعلمه عبادة.. فهو يستخدم أهم أداة من أدوات الخلافة وهي "العلم النافع".

بينما الثاني رغم طيب مقصده، لم يستغل عقله ولم يستثمر الأدوات المسخرة من حوله لعمارة الأرض والوصول، ربما لنتيجة علمية من تهجين لبعض الأسمدة أو حتى لم يصل إلى نتيجة كان يمكن الوصول إلى أفضل منها.. مثله كالشخص الفقير المتكاسل المتنطع الذي لا يسعى إلى التفكير والعمل بدلاً من التكاسل والجزع.

نفسي: عزيزتي! طالب العلم يربح الدنيا والآخرة معًا، والمؤمن مميز بالانتفاع من هذا العلم في الدنيا والآخرة.. في حين أن كثيرًا من غير المؤمنين يجيدون استخدام العلم، ويبرعون فيه بهدف دنيوي فقط.

كما يعتبر المسلم المتدين الجاهل مع سلامة صدره "شرًا"؛ فالمتدين الحقيقي لا يفصل الدين عن العلم، فكلما طور الإنسان نفسه، أيقن أن بهذا العلم والعقل سيصل أكثر إلى الله، وساعتها سيتأكد أنه مهما أوتي من علم فهو أمام علم الله صغير.

أنا: لقد فهمت ما تريدين قوله جيدًا، الإنسان خليفة الله في أرضه عندما يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا، وعندما يعمل لآخرته كأنه يموت غدًا.

حوار رائع جعلني أبحر داخل ذاتي.. أستخدم عقلي في التفكير.. حوار جعلني أبحث عن الذات بالذات.. حوار أبطاله ضمير يقظ، وعقل متدبر، ونفس لوامة، تبحث عن الله في كل تصرفاتها أو هكذا تسعى. ■

(*) كاتبة وباحثة مهتمة بشؤون الطفل / مصر.

hiragate.com

محمد سلمان المندعي*

محطات كهربائية في أعماق البحار

لقد عرف قدماء المصريين منذ ٤,٥٠٠ سنة مضت، الظواهر الكهربائية، وتشهد بذلك النقوش التذكارية في سقارة، التي عليها رسم سمك القرموط الكهربائي الذي يعيش في أعالي النيل. وفي أوروبا تعرفوا على الكهرباء منذ ٦٠٠ سنة قبل الميلاد، والفضل يعود في ذلك إلى مشاهدات "تاليس ميليتوس"؛ فقد لاحظ أنه عند تدليك قطعة كهرمان فإنها تكتسب خاصية جذب ثم طرد الأشياء الصغيرة المختلفة. وكلمة "الكهرباء" مشتقة من الكلمة

سمك الرعاد المرمري

تتراوح الكهرباء الصادرة عن سمكة الرعاد وفقًا للنوع، من 8 إلى 230 فولت. استخدمها اليونان والمصريون القدماء في التخدير عند العلاج الطبي.

اليونانية "اليكترون" بمعنى "كهرمان".

هذا وقد عُرف منذ وقت طويل ثلاثة أنواع من الأسماك التي تولّد صدمات كهربائية قوية، رغم أن طبيعة هذه القوة كانت غامضة بالنسبة إلى القدماء. قيل إن القوابع الكهربائية من عائلة الرعاد، استعملت من قِبَل الأطباء الرومان القدماء بشكل بدائي في المعالجة الكهربائية، ولوحظ أن لها اسمًا عربيًّا هو "أبو الرعد". كان الرومان يعتقدون أن هذه السمكة المرعبة، تفرز في الماء موادّ سامة عند رؤيتها فريستها، ووجد أنها تؤثر على الإنسان أيضًا عن طريق الجلد مباشرة ولكن لا يسبب موته، وإذا لمس شخص هذه السمكة، فإنه يشعر بصدمة وترتعش يده تلقائيًّا. وقد اعتبر الأطباء

لقد اعتبر الأطباء الرومان سمَّ الرعاد دواء ناجعًا يشفي الكثير من العلل، فكانوا يصيدونه ويحتفظون به في أحواض بحرية خاصة للاستخدامات الطبية.

سمك الرعاد تريسينتي

سمك الرعاد البردة

ثمة أسماك تعيش في البحار والأنهار تحمل شحنات كهربائيه قد تصل قوتها إلى 550 فولت، ومن هذه الأسماك سمكة "البردة".

الرومان سمَّ الرعاد دواء ناجعًا يشفي الكثير من العلل، فكانوا يصيدونه ويحتفظون به في أحواض بحرية خاصة للاستخدامات الطبية.

وفي أمريكا الجنوبية ظهر أن الأنقليس الكهربائي وهو أقوى أنواعه كهربائيًّا. كان معروفًا للسكان المحليين قبل أن يكتشف الأوروبيون، إذ وصلت الأنباء إلى الأوربيين عن هذه الأسماك متأخرًا جدًّا؛ فبعد اكتشاف أمريكا، تدفق إليها المغامرون المتعطشون للذهب، وكان الإسبان أول من غزا أمريكا، فشاعت أسطورة بينهم بأن جدران وأرصفة "إلدورادو" تتكون من الذهب، فراحوا يبحثون عن هذا البلد الأسطوري، وكان من بين الباحثين فريق يرأسه رجل يدعى "دي سيكا"، وقد استطاع هذا الفريق الوصول إلى أعالي نهر الأمازون، كانت الأخطار تحفهم من كل جانب، وعندما وصلوا إلى المستنقعات الضحلة تنفس الأوربيون الصعداء، معتقدين أن الطريق سيكون سهلاً، وعندما وصلوا إلى وسط أحد المستنقعات رفض الهنود المرشدون الاستمرار في السير معهم عبر الماء، عندها تقدّم أحد الأوروبيين راغبًا في المواصلة، ولكنه لم يخط بضع خطوات حتى دوى صوت غريب وارتمى الرجل على ظهره فجأة، فسارع رجلان لمساعدته، وإذا بهما أيضًا يسقطان على الأرض في المستنقع، وعندما بحثوا عن السبب فيما بعد، وجدوا نوعًا من الأسماك طوله حوالي مترين ووزنه نحو عشرين كلغ، صدَمَهم بصدمات كهربائية قوية؛ إنه سمك "الأنقليس". وقد

hiragate.com

سمك الأنقليس الرعاد

سمكة خاملة تعيش في مياه قليلة الرؤية، وهي كبيرة نسبيًّا. فقد وصل طول إحدى العينات إلى ثلاثة أمتار، ولها صدمات تصل إلى 650 فولت.

أطلق الهنود الحُمر على الأنقليس اسم "أريما" يعني "أم الشلل"؛ لأن هذا الثعبان السمَكي عندما يلمس أحدًا بجسمه، يفرّغ فيه شحنة من الكهرباء تجعل الجزء العلوي الذي أصابه المس، مشلولاً جزئيًّا، ولا يشفى من هذا الشلل إلا بعد عدة أيام.

وثمة أنواع أخرى من هذه الأسماك، ثبت أنها كهربائية فقط، وذلك بعد أن تطورت تقنية الوسائل في دراسة الكهربائيات. علمًا بأن القدرة الكهربائية القوية للسمك المنجم الكهربائي لم يتم التعرف إليها حتى حلول القرن الماضي.

هناك عشر عوائل تمثل ست رتب تم تمييزها كأسماك لها أعضاء كهربائية، وعائلة أخرى هي عائلة الجلكي، وُجد أنها تنظم مجالاً كهربائيًّا حول الرأس، ولكن منشأ هذا المجال غير معروف حتى الآن. العوائل ذات الكهرباء القوية هي عائلة الرعّاد، وعائلة الجري الكهربائي، وعائلة حاملات الكهرباء، وعائلة أسماك الفلكيات.

القدرة الكهربائية للأسماك

تنتشر القوابع الكهربائية انتشارًا واسعًا في المياه البحرية، والبعض منها يعيش في الأعماق. إنها قاعية وبطيئة، وبعض أنواعها الكبيرة قادرة على توليد صدمة بقوة ٢٢٠ فولت. أسماك الجري الكهربائية التي تعيش في المياه المعتمة للأنهار الأفريقية، يصل طولها إلى حوالي متر، وتنتج صدمات بقوة ٣٥٠ فولت. نوع أمزوني هو الأنقليس الكهربائي، وهي سمكة خاملة

سمك الرعاد الأصغر

وجد العلماء أن الأسماك الكهربائية تنظم مجالاً كهربائيًّا حول الرأس، ولكن منشأ هذا المجال غير معروف لحد الآن.

مثل سابقاتها تعيش في المياه العَكِرة، وهي كبيرة نسبيًّا. فقد وصل طول إحدى العينات إلى ثلاثة أمتار، ولها صدمات تصل إلى ٦٥٠ فولت، ولكن القوة العظمى المعتادة هي ٣٥٠ فولتًا. فالجهد العالي للتيار الكهربائي لثعبان السمك ضروري، لأن الماء العذب موصل رديء جدًّا للكهرباء. السمكة المنجمة الكهربائية بحرية وتعيش غرب المحيط الأطلسي، وتعتاد الحفر في الرمال، كما تستطيع أن تولّد ٥٠ فولتًا من الكهرباء.

الأسماك ضعيفة الكهرباء، هي ضمن عوائل موجودة غالبًا في المياه الاستوائية العذبة، ولكن إحدى هذه العائلات بحرية، وتكون قاعية أو شبه قاعية، وإلى حد ما خاملة.

يبلغ طوله أكثر من مترين ووزنه نحو عشرين كلغ. يسميه الهنود "أم الشلل"؛ لأن من يلمسه بجسمه تفرغ فيه شحنة من الكهرباء تجعل الجزء العلوي الذي أصابه المس مشلولاً جزئيًّا، ويستغرق الشفاء منه عدة أيام.

سمك الأنقليس الكهربائي الضخم

hiragate.com

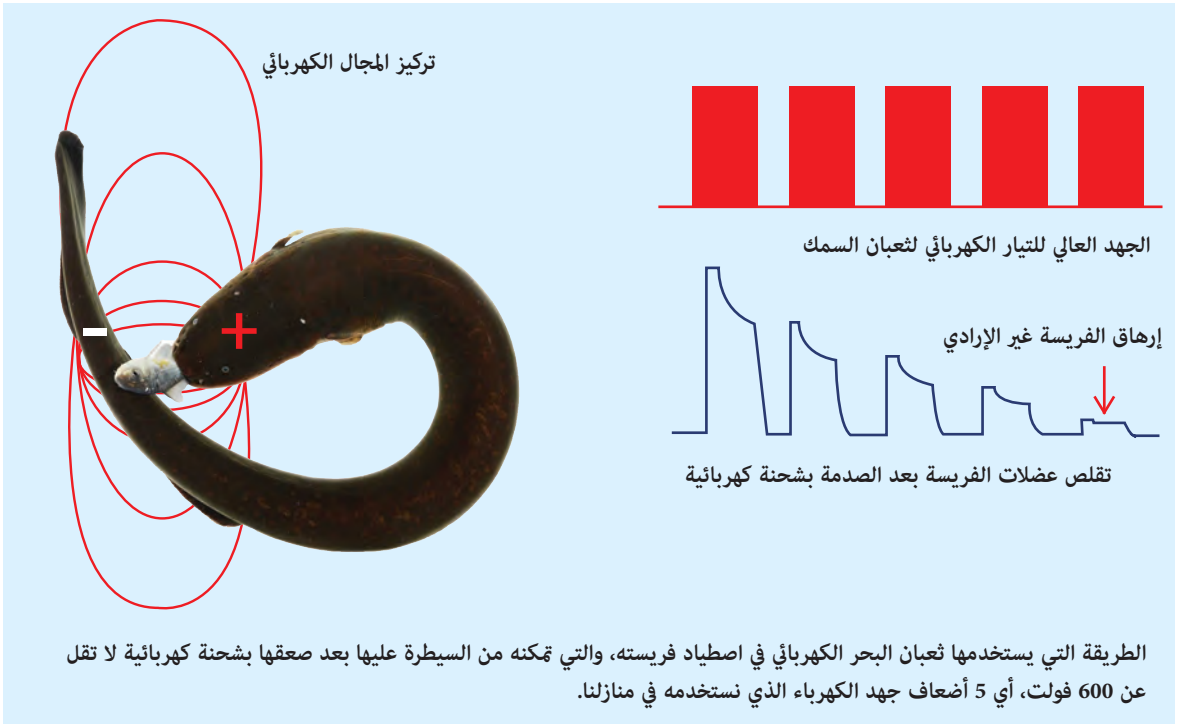

الطريقة التي يستخدمها ثعبان البحر الكهربائي في اصطياد فريسته، والتي تمكنه من السيطرة عليها بعد صعقها بشحنة كهربائية لا تقل عن 600 فولت، أي 5 أضعاف جهد الكهرباء الذي نستخدمه في منازلنا.

الأعضاء الكهربائية

تتكون الأعضاء الكهربائية من خلايا متخصصة تدعى الخلايا الكهربائية (Electrocytes) في النوع البالغ من الأنقليس يصل عددها إلى أكثر من مائة ألف خلية على كل جانب من العضو الكهربائي، وتنشأ هذه الخلايا من خلايا عضلية، تكون الخلايا الكهربائية نحيفة وعلى شكل رقائق وتنتظم في حزم اعتمادًا على توجه العضو، ويكون أحد أسطحها مزودًا بالأعصاب بكثافة، بينما السطح المقابل غير منتظم ويحتوي على عديد من البروزات حليمية الشكل، وتحاط حزم أو أعمدة الخلايا الكهربائية بمادة هلامية. الأعضاء الكهربائية غنية بالأوعية الدموية والأعصاب والأنسجة الرابطة.

ورغم التشابه الأساسي العادي لبناء الأعضاء الكهربائية، فإنها تختلف كثيرًا في موضعها ومظهرها في أنواع الأسماك المختلفة. فهي موجودة في الرعاد على شكل مجموعتين كبيرتين على جانبي الرأس في الزعانف الصدرية المتسعة، أما عضو ثعبان السمك الكهربائي فيتكون في كثير من عضلات الذيل، وفي سلور النيل الرعاد يطوق النسيج الكهربائي كل الجسم تحت الجلد مباشرة، وفي هذه الحالة يكون منشؤه من نسيج عضلي غير مؤكد.

مهام الأعضاء الكهربائية

يبدو أن وظيفة الأعضاء الكهربائية القوية هي صعق الفريسة وتثبيط همة الدخلاء أو المفترسين، واستعمال الكهرباء للحصول على الفريسة أمر ملاحَظ في أسماك الرعاد، ويبدو أن استعماله لمثل هذا الغرض في الأنواع الأخرى، محتمل عند الأخذ بنظر الاعتبار الظروفَ التي تعيشها الأنواع الكهربائية. كل الأنواع تكون متكتمة وتعيش قرب القاع في ظروف تسمح للفريسة بالاقتراب دون حذر، وأسماك المنجم على وجه الخصوص يمكنها التخفي بشكل جيد، سامحة للقشريات أو الأسماك الصغيرة بالتحرك في الرمال التي تكون المفترسات مدفونة تحتها. أما عند الأسماك ضعيفة الكهربائية فتقوم الكهرباء بتحديد الموقع كهربائيًا للأشياء القريبة، فهذه الأسماك تكوّن حول نفسها مجالاً كهربائيًا ضعيفًا، لكن شكله ثابت تمامًا، وخطوط قواه في مستوى الرأس يقوم بوظيفة الرادار الخاص، لا تستخدمه الأسماك لكي تنجو بنفسها من الأعداء فقط، بل تستعين به في تجنب الاصطدام بالحواجز واختراقها، مثلها في ذلك مثل الخفاش الذي يستخدم "صدى الرادار". ■

(*) كاتب متخصص في علوم البحار والبيئة / اليمن.

عبد العزيز معروف*

من الخادم؟

إن بين أيدينا رواية تعلمنا الطريق الحقيقي للانبعاث من ظلمات التيه إلى الرشاد، وأن البناء الحقيقي للأمة يكون ببناء أفرادها ووضعهم على طريق الله. فإن الفرد إذا انبعث وتحرك انبعثت الأمة وتحركت نحو نهضة حضارية حقيقية، فليست النهضة بالأبنية الشاهقة ولا بالأسلحة المهلكة، بل مقياس النهضة هو الإنسان، وهذه هي الأطروحة التي تعالجها الرواية بأسلوب حكيم ومنطق عملي عرفاني.

لا تكن ممن مات في العشرين ودفن في الثمانين

المعنى الحقيقي للحياة: ابتدأ الكاتب بوضع قضية الحياة والموت محورًا مركزيًّا،

وعالجها بمقاربة جديدة بأن جعل معنى الموت هو "الغفلة وغياب الوعي"، ومعنى الحياة "اليقظة وانبعاث الوعي"، فلربما مات الإنسان وقلبه لا يزال يخفق، ولربما عاش الإنسان وهو مدفون منذ مئات السنين. وقد سأل أحد الحكماء تلامذته ذات مرة: ما المعنى الحقيقي للحياة، وما المعنى الحقيقي للموت؟ فأجابه تلامذته بأجوبة مختلفة، وأجاب هو بالتالي: المعنى الحقيقي للموت أن تعيش على ظهر هذه الأرض طيلة عمرك ثم تدفن في التراب وليس لك أي أثر في هذا العالم، والمعنى الحقيقي للحياة أن تعيش على هذه الأرض وتدفن ولا تزال آثارك فيها. فلرب شخص يعيش بين الناس وهو ميت، ولرب ميت وهو حي، ولكن الكاتب عالج قضية الحياة بحكمة رائقة، فليس معنى الحياة أن تكون ناجحًا في عملك فقط، بل هذا جزء لا بد منه، ولكن النجاح الأسمى الذي يُطلب منك هو نجاحك في علاقاتك مع رب السماوات والأرض، وذلك بأن تنشغل بما طلب منك ولا تنشغل بما هو مضمون لك، وتأمل قول الحق ﷻ: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾(الأنعام:١٢٢).

ولعل سائل يسأل: لماذا ركز الكتاب على قضية الغفلة وغياب الوعي؟ والجواب: إن الانبعاث الحضاري للأمة يكون باستيقاظها من غفلتها الحقيقة ولهثها وراء الفاني، بل إن الإنسانية بأسرها تحتاج إلى هذا، إلى انبعاث نحو الغاية العظمي.

اليقظة أولى منازل السائرين

منزلة اليقظة هي أولى منازل السائرين في طريقهم إلى الله، وهي انزعاج يصيب القلب بعد تنبيه يأتيه وهو في رقدة الغافلين، فيرتعد القلب ويصيب الإنسان قلق بالغ، ويدرك حقائق محيطة به في عالمه الواقعي لم يدركها من قبل، وتتكالب عليه الذكريات والأحزان والهموم، فيشعر بأن هناك شيئًا قد فُقد منه، فيبدأ بالتفتيش والبحث عنه، ثم بعد ذلك يجد أن "ما تبحث عنه يبحث عنك".

وها هنا إشارة عرفانية، وهي أن شرف الإنسان وفضيلته التي فاق بها أصناف الخليقة، استعداده لمعرفة الله تعالى، وهي في الدنيا جماله وفخره، وفي الآخرة عدته وذخره، وهذا الاستعداد بالقلب لا بجارحة من الجوارح.

هذه اليقظة التي أصابت بطلنا "مطر"، هي ما جعلته لا ينام في الليل، فأراد أن يبحث عن إجابة لسؤال، وهذا هو حالنا فأنا وأنت (مطر) نعيش في رتابة غير اعتيادية، هل حاولنا ذات مرة أن نسأل أنفسنا: لماذا نعيش؟ لماذا خُلقنا؟ هل بحثنا حقًّا عن معنى الحياة؟

فإذا أصاب الإنسان هذه الحيرة، انتقل منها إلى منزلة أخرى وهي الفكرة ، فتُحدث الفكرة في داخله صراعًا بين الركون إلى الدعة والراحة وبين التعمق في حاله، فإذا مازج فكرته باللجوء إلى الله، قَوى الذكر الفكر، وانهالت عليه أنوار وفيوضات من الرحمات، وصار مؤيدًا، وهذا حال لا بد للسالك منه.

إياك واليأس

هل يمكن لإنسان قضى غالب حياته في غفلة وارتكب كل المنهيات أن يصير هاديًا مهديًّا، ويتحول بين عشية وضحاها إلى مرشد لغيره ومدافع عن الخير؟ سؤال حير الكثير، والإجابة "نعم".. ألم يقل رب العالمين: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(الزمر:٥٣).

ففي الآية بعث للرجاء في نفوس العباد للخروج إلى ساحل النجاة إذا أرادوها، وإذا علمت أن المراد بهذا الخطاب المشركين ابتداءً، فما بالك بمن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. فالرواية تبعث فينا روح الأمل بأن الخير لا زال فيك أنت أيها القارئ، وإياك أن تيأس وتظن الآوان قد فات، نعم، قد فات وقت الغفلة وحان وقت الانبعاث.

مكان البداية ومنزلة البصيرة

إذا استيقظ الإنسان من غفلته، وأورثته تلكم اليقظة فكرة، أعقب ذلك منزلة أخرى، وهي منزلة البصيرة، وقد مثلها الكاتب هنا بـ"مكان بدأ فيه كل شيء". فالبصيرة عند أهل العرفان نور يقذفه الله في القلب، يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل، كأنه يشاهده رأي عين، فيتحقق مع ذلك انتفاعه بما دعت إليه الرسل، وتضرره بمخالفتهم، وهذا معنى قول بعض العارفين "البصيرة ما خلصك من الحيرة إما بإيمان وإما بعيان".

hiragate.com

وهـذا ينطبق على حال "مطر"، حيث أراد الخادم أن يريـه العـدو الحقيقـي الـذي لا يفتر ولا ينـام، يعيش ليله ونهاره من أجل هدف واحد، وهو "لأغوينهم أجمعين". فيا ترى ما السـبب وراء هذه العداوة الشـديدة؟ وما سـر انتكاس إبليـس بعـد أن كان مـن المقربيـن؟ وما السـبب الذي جعل الخادم يُري "مطرًا" هذه الأحداث بالذات؟

الإجابـة واحـدة، إذ أراد الخـادم -وكـذا كل شـيخ مربّـي- أن يعلـم مريـده دروسًـا عمليـة فـي الطريـق إلـى الله، ومنهـل الـدروس ودسـتورها البيـان الخالـد "القرآن الكريـم"، ولكـن لقـراءة القـرآن شـروط حتـى يؤثـر فـي المحـل، وأهـم الشـروط التـي علمهـا لنا الخـادم، التدبر ومراجعـة الفكـرة، وشـحذ البصيـرة، ومفاتشـة الآيات.. وقد علمنا الخادم -وكما قلت آنفا: أنا مطر وأنت مطر، فمطر ممثل للإنسانية جمعاء- عدة دروس:

١-لا حول ولا قوة إلا بالله: فمهمـا أتيـت من أفعال صالحـة، أو ترقيـت فـي منـازل السـائرين أو صُمـت أو تزكيـت.. فالـذي وفقـك في كل هو الله، فإياك أن تنسـب لنفسـك عملاً، فإبليس لم تنفعه كثرة عبادته ولا درجته؛ لأنه ظن أن له حولاً وقوة، وهذا أورثه كبرًا وحسدًا.

٢-اعرف عدوك تعرف كيفية النجاة: مـن المعلـوم أن معرفـة العـدو وقدراته وحيله، تورث لدى من يحاربه قدرة على معرفة كيفية الانتصار عليه، ثم إذا أضيف إلى ذلك معرفة طرق محاربته كان الأمر أنجـع.

٣-إذا أعطاك ربك فإنه أشهدك البر والكرم، وإذا منعـك فإنـه أشـهدك القوة واللطف، وهـو متعرف عليك في كلٍّ. أراد الخادم أن يعلمنا أن الخير الحقيقي لا نعلم أين هو، بل قد يظهر لنا في أمر ما خيرًا ولكنه في حقيقته شـر، وقـد يجزع الواحد منا إذا أصابـه مكروه، ولكن إذا تأملنـا وجدنـا أن كل أقـدار الله خيـر، ولكـن العبـرة بمن رزق فهمًا في أقدار الرحيم.

٤-لا تيأس وتذكر أن باب التوبة مفتوح: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(البقرة:٣٧).

القلب اليقظ قلب رحيم

يعلمنـا الخادم معنى الإنسـانية، وأنك إذا وجدت إنسـانًا أخطأ وأصاب كبيرة فإياك وتحقيره فضلاً عن أن تفضحه،

إن الانبعاث الحضاري للأمة يكون باستيقاظها من غفلتها الحقيقــة ولهثها وراء الفاني، بل إن الإنســانية بأسرها تحتــاج إلى انبعاث نحو الغاية العظمى.

بل الواجب عليك أن تقوم بإنقاذه.. فقد كنت مثله أو قد تكـون، فإيـاك وتحقير الآخر كائنًا من كان، بل ابذل غاية جهدك في مساعدته من منطلق الإنسانية.. لا تدع بابًا من أبواب المسـاعدة إلا وتطرقه، وتأمل قول سـيدنا رسـول الله ﷺ: "بينمـا رجـلٌ يمشـي بطريـقٍ، وجـد غصـن شـوكٍ على الطريـق، فأخـره فشـكر اللهُ لـه فغفر لـه" (متفق عليه).

فهـذا غصـن شـوك، فمـا بالكـم بأفضـل خلـق الله إذا أخـذه الإنسـان مـن طريق الظلمات إلـى طريق النور، بل ما أُرسلتْ الأنبياء وخاصة سيدنا رسول الله، إلا لإخراج النـاس مـن الظلمات إلى النور. فالفقر ظلمات، والجهل ظلمـات، والاسـتبداد ظلمـات، والتكالـب على الدنيـا ظلمات، والكبر ظلمات، والخيانة ظلمات، والقتل بغير حـق ظلمات، والتعري والفجور ظلمات.. والحب نور، والخير نور، والصدق نور، والعلم نور، والعدل نور.

عرش بلا سلطان

كأن الخـادم قـد مـر علـى الإمـام الغزالـي فـي الماضـي وأخـذه معـه فـي رحلتـه إلـى النفس؛ فقـد صـور الإمام فـي كتابـه "إحياء علوم الدين" القلـبَ بثلاث صور، منها أن القلـب مملكـة وحولـه جنـود وقـادة ووزراء. ولكـن الغزالـي لـه طابـع خـاص، وهـو الطابـع العلمـي الـذي يمهد فيه للمعاني التي سيخوض فيها وهذا تابع لطبيعة التأليـف فـي عصـره، فقام الإمـام بتعريفنـا بوظيفة الوزير الأول، وهـو السـيد "نفس" وألقابـه التي قد حـاز عليها، فمنها اللوامة والمطمئنة والأمارة بالسوء. أما الخادم فقد اسـتعمل نفس التشـبيه، ولكنه حدد الوظائف من الناحية العمليـة، فلـم يكتـف بالتحديد العام، بـل أراد أن يوضـح لنا الناحية الإجرائية لكل فرد من أفراد هذه المملكة.

سر الكهف وبداية الانبعاث

أولاً: مـا سـر الاسـتعانة بالنـوم والراحة فـي الوصول إلى كهف الغفلة؟

hiragate.com

الجواب: إن الواجب على الإنسان أن يروض نفسه رويدًا رويدًا، فالخادم يعلمنا بأن لا نستعجل ونقسو على أنفسنا، بل لا بد من مصادقة النوم والراحة وترويضهما لكي يعملا معنا في الانبعاث واليقظة. فلربما اشتد المريد على نفسه في بداية الأمر حتى أورث نفسه الضجر والملل، وتجلى هذا في أن "مطرًا" أراد أن يحبس السيد نفس في وادي الصيام، فبيّن له الخادم أن هذا خطأ، فالواجب هو الترويض والصبر والمصابرة.

ثانيا: يعلمنا الخادم أن الحقيقة قد تكون أمامك ولا تراها، فأنت يا مسكين قد تذهب لتنقذ آخرين وأنت أولى الناس بالإنقاذ، فإياك في أول الطريق أن تلتفت، وقد قال أهل الله "ملتفت لا يصل".

أنت مفتاح الخير لنفسك

لما خلقك الله نفخ فيك من روحه، فالمفتاح في يدك أنت، ولكن مفتاح باب قلعتك ليس من الخارج، فهو مفتاح غريب بعض الشيء، فهو من الداخل. فاستعن بمن بيده ملكوت كل شيء حتى تصل إلى هذا المفتاح، فقد يكون أقرب إليك من نفسك وأنت لا تشعر.

إياك أن تسقي رعاياك بماء ملوث

لا بد أن تفاتش نفسك حتى ترى النور بداخلها، فإذا لم تجد النور، فاعلم أنك قد أضعفت جنودك بأن سقيتهم من مياه ملوثة وأطعمتهم أغذية فاسدة. فالخادم يعلمك أن هناك أربعة أنهار تسقي مملكتك، وهي نهر العين، ونهر الأذن، ونهر المعدة، ونهر اللسان. وهذه الأنهار تغذيك أنت وقادتك وخدمك. إياك وأن تغتر بالنصر في معركة واحدة، فالحرب سجال.

قد تفوز في معركة من معارك النفس كما حدث مع مطر، ولكن العدو الأبدي لن يتركك وشأنك، بل سيضاعف عدته وعتاده، وسيحاول أن يفاتش عن نقطة ضعف في حصنك، فلربما أتاك من قبل أقرب الناس إليك، كما فعل مع مطر وزوجه وأمه، ومع مطر وصديقه، ومطر والسكرتيرة.. وإذا كان ذلك كذلك فما الحل؟ الحل الأزلي هو الذكر والفكر، وهما لا يتمان إلا بالخلوة والمجاهدة. وقد مارس مطر الخلوة الأربعينية حتى يصل إلى منزلة الفناء، فلا يرى إلا "هو"، ولا يسمع إلا "هو".

الخلوة طريق لتحقيق الفناء

قال الحارث المحاسبي: "إن الإنسان إذا عطل ملك السيئات أربعين يومًا، تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه، وعرف أن الطريق هو طريق الحق".

الخلوة طريق للانقطاع عن كل ما سوى الله، ففيها يقطع الإنسان علائقه بالدنيا وبالناس وبالأحداث والزمان والمكان، فيعطل ملك السيئات أربعين يومًا، وفيها يطبق الإنسان أسرار التأدب مع الله، ويلهج لسانه بالذكر، ومن الذكر يحدث تدرج في النفس البشرية للارتقاء مع الله، فتحدث اللطائف الخمس التي ذكرها أهل الله (القلب، والروح، والسر، والخفي، والأخفى)، وهي مراتب متراتبة بعضها على بعض، وهي في عالم الملك، ومثلها ينعكس في عالم الملكوت، فتنبعث الحكمة من قلبه، ويفتح على الإنسان فتحًا يجعله على يقين لا يتردد أبدًا، فتتحول الأمور إلى مشاهدات بعد أن كانت مسائل.

وهذا ما حدث مع مطر، جاء إليه عدوه الأبدي، لم يستطع أن يدخل له من أي مدخل؛ لأن مطرًا قد شاهد الحقيقة، وأراد العدو اللدود أن يدخله في باب الغرور والكبر، وأن يقول ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾(القصص:٧٨)، ولكن من دخل من باب "لا حول ولا قوة إلا بالله" صار قلبه صافيًا كالمرآة لا يتشرب الشبه والوساوس، بل يبصر الحقائق ويستشعر الخطر، ومن دخل من أي باب غيرها، صار قلبه كالإسفنج يتشرب كل شيء وينطبع فيه.

إن الله لا يغير ما بقوم

ضربت لنا الرواية أعظم ملحمة عرفتها الإنسانية، الصراع الأزلي بين قوى الخير والباطل الذي لا يدور على ظاهر الأرض فقط، بل أدخلتنا في المكان الحقيقي للمعركة وهو النفس البشرية؛ فمنها نبعت المعركة ومنها تنتهي إلى الخير أو الشر، ولكنها علمتنا أن كل واحد منا ملك في هذه المعركة، فإما أن يكون حرًّا وسيدًا، وإما أن يتحول إلى أسير ينتظر الموت في أي لحظة ويتمناه مع خوفه الشديد منه. ■

(*) باحث في لجنة إحياء التراث بمجمع البحوث الإسلامية / مصر.

hiragate.com

خلف أحمد أبو زيد*

السفارات الدبلوماسية في الحضارة الإسلامية

كان لبزوغ فجر الإسلام نقطة تحول كبيرة في تاريخ الدبلوماسية، فقد طرأ عليها تغير جذري في ميدان السفارات، شأنه في ذلك شأن سائر الميادين الأخرى من سياسية واجتماعية واقتصادية.. فأصبحت السفارات أفسح مجالاً مما كانت عليه في الجاهلية، وأهم من مجرد العلاقات التجارية المرتهنة بظروفها. فقد أصبح لها منهج يتمتع بقواعد ونظم محددة

أقامت الحضارة الإسلامية علاقاتها الدولية مع الآخرين على أساس المساواة والعدل والحق، فوضعت قواعد دبلوماسية قائمة على الأخلاق والفضيلة.

ترسمها الدولة الإسلامية في تسيير علاقاتها بغيرها من الدول. وقد نشأ هذا النظام وذلك التطور، تبعًا لنشأة الدعوة الإسلامية وتطورها، فلقد اقتضت طبيعة الرسالة أن يتخذ النبي ﷺ من السفارات وسيلة لنشر دعوته، وسبيلاً إلى تأليف القلوب، ودستورًا في علاقاته العامة في الجزيرة العربية أو مع الأمم والشعوب الأخرى.. وقد تجلت هذه الدبلوماسية الإسلامية النبوية، فيما بعث به رسول الله ﷺ من كتب، وأوفد من بعوث إلى ملوك الدول المجاورة ورؤسائها، لدعوتهم إلى الدخول في دين الله الحق؛ كسفرائه ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة، وكسرى ملك الفرس، وقيصر ملك الروم، والمقوقس عظيم القبط في مصر. وكانت الكتب التي يحملونها، مصدرة بعبارة "السلام على من اتبع الهدى". وكان ﷺ يمهر كتبه بخاتم لما قيل له إن الملوك لا يقرأون كتابًا إلا مختومًا، وكان عدد سفرائه خمسة عشر سفيرًا[1].

وقد سار الخلفاء الراشدون من بعده على خطاه ﷺ، إذ كانوا يرسلون الكتب والبعثات الدبلوماسية التي توالت في العصور اللاحقة، مما مثلت نماذج راقية في طريقة التواصل مع الآخرين، وخلْق جو من الاحتكاك الثقافي مع الحضارات الأخرى التي استندت إلى مبادئ إرساء دعائم ثقافة السلام بين الشعوب، التي استمدت قوتها من القرآن الكريم الذي حث على حسن التعامل مع الآخرين.

لقد ألَّف المسلمون الدواوين الخاصة بالعلاقات الخارجية، واهتموا بتوسيع دائرة علاقاتهم السياسية مع الآخرين، التي اعتمدت على تبني الأسلوب الدبلوماسي في حل المشكلات مع الدول المجاورة، خاصة بعد أن ازدادت العلاقات الدبلوماسية وتبادل السفراء، وكان من أشهرها السفارات الثلاث التي أرسلها الخليفة هارون الرشيد لشارلمان ملك الإفرنج في أعوام ٨٠١، ٨٠٢، ٨٠٧ للميلاد، وكذلك سفاراته للقسطنطينية، وروما، ومملكة البلغار، والهند، والصين.. وبالتالي كانت هذه السفارات أيضًا، وسيلة للتعاون والتبادل العلمي والثقافي، كسفاراتهم لإحضار علماء ومترجمين من بيزنطة، أو إرسال طبيب مسلم لمعالجة شارلمان، الأمر الذي أثرى الحضارة الإسلامية، وجعلها تحلق في أفق أرحب من الإبداع في ظل هذا الاحتكاك والتواصل مع الآخر.

حصانات السفراء

لقد تنسم المسلمون خُطا النبي الكريم ﷺ في سياسته والسير على نهجه في حسن معاملة السفراء وإكرامهم واحترامهم، حتى إنهم قد أعفوهم من دفع الضرائب والمكوس عما يحملوه معهم من الأمتعة، على نحو ما يجري في الوقت الحاضر، "وكانوا يعرفون الحصانة الدبلوماسية للسفراء الذين يعيشون في ديار الإسلام وكأنهم في بلادهم. ويتجلى ذلك في أن قوانين الإسلام لا تطبق عليهم إلا بمقدار"[2].

وأقر الإسلام للسفراء حصانات أو امتيازات ثلاثة؛ هي الحصانة الشخصية، والحصانة المالية، والحصانة القضائية، ولا خلاف بين الفقهاء فيما يخص الحصانتين الشخصية والمالية للسفير. أما الحصانة القضائية فنشأ فيها خلاف؛ "فهناك فقهاء قرروا مسؤولية المستأمن، والسفير السياسي مدنيًا وجنائيًا عما يرتكبانه من أعمال في بلاد الإسلام، لأن المستأمن ملزم بإحكام الشريعة بطلبه الأمان والإقامة في دار الإسلام، فيعاقب وفقًا للفساد، ودفع الفساد واجب ملزم لكل من يقيم بين المسلمين ولو مؤقتًا"[3]. ولم يقتصر الأمر عند السفراء، بل امتد الأمر إلى رعايا هذه الدول، ممن يقيمون داخل الأراضي المسلمة، وأنه خلال العصر العباسي، ونتيجة لنشاط حركة الدبلوماسية الإسلامية "تم تطبيق مبدأ المقابلة بالمثل، فكانت معاملتهم للأجانب تنطلق من معاملة هؤلاء لرعايا الدولة العباسية، فإذا قامت الدولة الأجنبية بإعفاء رعايا الدولة العباسية من الرسوم، أو

hiragate.com

فرضت عليهم رسومًا أخرى، أو منحتهم مزايا، فإن رعايا تلك الدولة يعاملون بذات المعاملة. وكان من نتيجة التطور الدبلوماسي، أن نصت العديد من المعاهدات التجارية المعقودة بين الدولة العباسية والدول الأخرى على مبدأ المقابلة بالمثل"[٤].

استقبال السفراء

لقد كان الخلفاء المسلمون يستقبلون السفراء على النحو الذي يجري اليوم، ويجعلونهم موضع احترامهم وتقديرهم من اللحظة التي تطأ أرجلهم ديار الإسلام حتى مغادرتهم. كانوا يخصون السفير ومرافقوه باستقبال حافل على الحدود حتى العاصمة، حيث يجد السفير بانتظاره شخصية سامية، وينزل ومرافقيه في قصر الضيافة. وقد جرت العادة أن يستقبل السفير من قِبل وزير مكلف بالمهمة، ويحدد معه موعدًا لمقابلة الخليفة، وعندما يحظى بمقابلة أمير المؤمنين، يقدم له كتاب سيده رئيس دولته، ومن ثم الهدايا التي يحملها معه.

وتقص علينا الكتب التاريخية مراسم استقبال أحد الخلفاء العباسيين لسفراء قيصر الروم في سنة ٣٠٥ هـ، فتقول: "قدم رسل ملك الروم إلى بغداد، فلما استحضروا عبئت لهم العساكر المصفوفون حينئذ مئة وستين ألفًا ما بين راكب وواقف، ووقف الغلمان ذوو الزينة الحجرية والمناطق المحلاة، ووقف الخدام الخصيان كذلك، وهم حينئذ سبعمائة حاجب، وألقيت المراكب والزوارق في دجلة بأعظم زينة، وزينت دار الخلافة، فكانت الستور المعلقة عليها ثمانية وثلاثين ألف ستر، منها اثنا عشر ألفًا وخمسمائة ستر من أعظم الديباج المذهب، وكانت البسط اثنين وعشرين ألفًا، وكان هناك مائة سبع مع مائة سباع، وكان في جملة الزينة شجرة من ذهب وفضة تشتمل على ثمانية عشر غصنًا، وعلى الأغصان الطيور والعصافير من الذهب والفضة، والأغصان تتمايل بحركات موضوعة، والطيور تصفِّر بحركات مرتبة.. وشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه، وأحضروا بين يدي المقتدر، وصار الوزير يبلغ كلامهم إلى الخليفة، ويرد الجواب على الخليفة"[٥].

أزياء السفراء

كان للرسل والسفراء ملابس خاصة، أو زي رسمي يرتديه السفراء المسلمون حين مقابلتهم رؤساء الدول الأجنبية. فقد ظهر "نصر بن الأزهر" الذي أرسله الخليفة العباسي "المتوكل" إلى القسطنطينية عام ٨٦١م بالزي الرسمي العباسي الأسود متمنطقًا سيفًا وخنجرًا"[٦]. وهناك تشابه بين الزي الذي يرتديه سفراء هذا العصر مثل السموكن، وزي السفراء العباسيين من حيث طغيان اللون الأسود والتمنطق بسيف مرصع بالجواهر في المناسبات الكبرى، أو حين تقديم أوراق الاعتماد لدى بعض السفراء.

وفي النهاية نقول، إن الحضارة الإسلامية قدمت الكثير في مجال العلاقات الدبلوماسية، وأن ذلك يرجع في المقام الأول إلى العقيدة الإسلامية السمحاء التي جمعت بين الدين والدنيا، والتي لم تستخدم الدين كأداة للدنيا.. فالسياسة أخلاق بالنسبة إليها، فقامت علاقاتها الدولية مع الآخرين على أساس المساواة والعدل والحق، فوضعت بذلك قواعد دبلوماسية قائمة على الأخلاق والفضيلة، قادت العالم إلى تنسم خطاها والسير على نهجها. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

الهوامش

(١) السفارات النبوية، لسعيد زايد، مجلة الوعي الإسلامي، الكويت، العدد:٣١١.

(٢) شريعة الحرب في الإسلام، لمحمد المعراوي، المطبعة الهاشمية، دمشق، عام ١٩٥٦، ص:٣١٦.

(٣) كتاب الخراج، للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم، الناشر المطبعة السلفية في مصر، الطبعة الثالثة، ص:١٧٩.

(٤) العلاقات الدبلوماسية إرث العصر العباسي، لعبد المنعم عبدالعظيم، جريدة العرب، العدد:٩٨٤٤.

(٥) حضارة العرب، للدكتور غوستاف لوبون، تعريب محمد عادل زعيتر، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، عام ١٩٤٥م، ص:١٩٣-١٩٤.

(٦) العلاقات الدبلوماسية، إرث العصر العباسي، عبد المنعم عبد العظيم، جريدة العرب اللندنية، العدد:٩٨٤٤.

hiragate.com

د. خالد راتب*

المنهج الانتقائي النقدي

حرص الإسلام على بناء شخصية استقلالية لها رؤية في الحياة، تنطلق من قواعد ثابتة، تتميز بالوعي والانضباط. وإن الاستقلالية التي تتمتع بها الشخصية المسلمة لا تعني أنها منغلقة على نفسها، منعزلة عن الحياة تعيش في برج عاج، ولكن تعني أنها شخصية متجاوبة تتفاعل مع الثقافات المختلفة، وتستفيد من العلوم والمعارف المتنوعة. ولكن هذا التجاوب والتفاعل ينطلق بقدر وحساب، فالمسلم -الذي يطبق تعاليم الإسلام تطبيقًا صحيحًا- يقرأ الواقع قراءة جيدة، ويستشرف المستقبل ويتعلم من الماضي، ينتقي المفيد والنافع، يعمل فكره؛ فهو ليس مجرد متلق تابع، فالاتباع على غير هدى، ومن غير قواعد وأسس سليمة يؤدي إلى هلاك ودمار العقل، حتى يصبح مجرد أداة تتحرك دون وعي وإدراك وراء كل ناعق. وهذا ما حذر منه القرآن الكريم، حيث وصف حال من يسمع ما يقال له ولا يعقل، كمثل البهيمة تسمع النعيق ولا تعقل، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(البقرة:١٧١)، وجاء التحذير النبوي -كذلك- من فعل هذه الطائفة التي تأخذ كل شيء دون نقد وانتقاء وفكر ووعي، قال ﷺ: "لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم، قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن" (رواه البخاري).

إن الشخصية المسلمة التي فهمت الإسلام فهمًا صحيحًا، شخصية تتمتع بتوازن علمي حضاري لا تتسم بالإمعية، فهي تتعامل مع المعطيات الثقافية أو مع الثقافة على وجه العموم، والثقافة الغربية على وجه الخصوص، بمنهج التمحيص والاختيار الواعي المنضبط للوارد إليها، وهو ما يمكن أن نطلق عليه "المنهج الانتقائي النقدي". وبناء على ذلك فإن المنهج الانتقائي النقدي يختلف عن منهج الاجتزاء، فمنهج الانتقاء والنقد في التعامل مع كل الثقافات والعلوم والمعارف، قائم على

اختيار واع منضبط لا تبهره زخرفة الحضارات المختلفة وزينتها، فهو ينظر إلى الجوهر دائمًا وإلى ما ينفع وما يتناسب مع المعطيات والمبادئ الراسخة. ومن هنا كان هذا المنهج الانتقائي النقدي -القائم على التمحيص والتفنيد- هو ما دعا إليه المنهج الإسلامي، وطلب من أتباعه الانضباط به في كل الأمور. فالأمة الإسلامية في نهضتها الأولى أفادت من الأمم التي عاصرتها علومًا ومعارف، أخذتها في صورتها الخام وأعادت تشكيلها من جديد بما يوافق نهجها وتصورها. فالمنهج الانتقائي النقدي يتسم بالوسطية والاعتدال والرؤية المتوازنة، لا إفراط ولا تفريط، بعيدًا عن الانفتاح المبالغ فيه على الغير، والانغلاق المبالغ فيه على النفس.

أما المنهج الاجتزائي فهو منهج يخضع للهوى؛ لأنه يطمس الحقائق ويزورها، فأصحاب هذا المنهج يأخذون من العلوم والمعارف والثقافات والنصوص ما يخدم قضيتهم وأهدافهم وأغراضهم.. فهم يسيرون على منهج "ولا تقربوا الصلاة"، وهذا يختلف -تمامًا- مع منهج النقد والانتقاء الذي جاء بيانه من قبل، والذي دفعني للتفرقة بين المنهج الانتقائي والمنهج الاجتزائي، أنه حدث خلط بينهما -عند بعض العلماء- وذم البعض المنهج الانتقائي على أساس أنه المنهج الاجتزائي، مع أن الفرق بينهما كبير.

وقد يظن البعض أن هذا المنهج الانتقائي النقدي وليد العصر الحديث، بل هو منهج إسلامي ظهر مع ظهور الإسلام، ومن الدلائل الواضحة التي تثبت أسبقية الإسلام في تطبيقه للمنهج الانتقائي النقدي، أنه وضع قواعد عملية عقلية لتمحيص كل ما يتلقاه المسلم والتثبت منه وتنقيحه، ومعرفة حال من ينقل إلينا هذه المعارف والعلوم والثقافات، فيشترط فيه الأمانة العلمية أمانة النقل، كالعدالة والضبط وعدم خروجه عن المنهج العام المتفق عليه عند العلماء المعتبرين، ودليل سبق المسلمين غيرهم في استخدام المنهج الانتقائي النقدي أن النبي ﷺ في مواقف عديدة من السيرة النبوية، بين لنا كيفية التعامل مع نتاج وأفكار الأمم والأخذ بما ينفعنا منها، ومثال ذلك أخذ النبي بفكرة حفر الخندق حول المدينة من سلمان الفارسي ﷺ عندما قال للنبي ﷺ: "يا رسول

إن المنهج الانتقائي النقدي يجنب الأمة خطر الانفتاح المبالغ فيه على الآخر، والانغلاق والتقوقع على النفس، كما أنه يسهم إسهامًا كبيرًا في التطور الحضاري، ويدفع الأمة بقوة في طريق الازدهار والتقدم.

الله إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خَندقْنا عليها"، وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك.

وفي جانب آخر من السيرة نجد النبي ﷺ ينهى عن الأخذ عن السابقين بما ليس له أي ضرورة أو منفعة سوى التقليد الأعمى، وذلك عندما خرج مع الرسول ﷺ إلى حنين بعض حديثي العهد بالجاهلية، وكانت لبعض القبائل شجرة عظيمة خضراء يقال لها "ذات أنواط" يأتونها كل سنة، فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يومًا، وبينما هم يسيرون مع النبي ﷺ إذ وقع بصرهم على الشجرة، فتحلبت أفواههم على أعياد الجاهلية التي هجروها ومشاهدها التي طال عهدهم بها، فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: "سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾(الأعراف:١٣٨)، والذي نفسي بيده لتركبنَّ سنَّة من كان قبلكم" (رواه الترمذي).

وامتدادًا لهذا المنهج الانتقائي النقدي، رأينا المسلمين قد اهتموا اهتمامًا كبيرًا بعلم الحديث دراية، وهو العلم الذي يهتم بكل ما يروى من الأحاديث -انتقاء ونقدًا- بوسائل علمية عقلية فائقة الدقة.

إن المنهج الانتقائي النقدي يجنب الأمة خطر الانفتاح المبالغ فيه على الآخر، والانغلاق والتقوقع على النفس، كما أنه يسهم إسهامًا كبيرًا في التطور الحضاري، ويدفع الأمة بقوة في طريق الازدهار والتقدم. فالمجتمعات البشرية التي تسير وفق هذا المنهج العلمي القائم على الفكر والعقل، مجتمعات تبني حضارات متينة ممتدة عبر القرون والأجيال. ■

(*) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.

hiragate.com

فتح الله كولن

كيف نصمد أمام الأعاصير؟

نحن أحوج ما نكون إلى إحياء الليالي.. نحن بحاجة إلى أن نخلو إلى الله.. بحاجة إلى يقظة قلبية حقيقية عندما نقف بين يديه سبحانه.. نحن بحاجة إلى أن نلحّ في عبوديتنا على معنى "الإحسان" الذي تعرفونه جيدًا.. نحن محتاجون إلى ذلك أشد الاحتياج.

إزاء هذه العواصف المهولة التي تعصف حولنا، إزاء تسونامیات متعاقبة، إزاء أعاصير مروعة، إزاء عجز الأشجار العملاقة عن الصمود وتهاويها، إزاء كل ذلك، نحن بحاجة إلى أن نتمسك بأوامر الله بقوة وجدية كبيرة. كما قال أحد العظام "إن كنت تخشى عذاب الله فتمسك بأوامره". فالأشجار ترمي بجذورها في الأعماق لكيلا تنهار.

الأشجار القريبة من الماء لا تمتد جذورها في أعماق التربة، تنهار في الحال مع أدنى عاصفة. ينبغي أن تعمِّقوا العلاقة مع الله بلا توقف، كونوا مثل الأشجار الضاربة بجذورها في الأعماق. الذين يهاجمونكم اليوم يتعمَّقون في ممارسة العداء والظلم ضدكم، يتعمَّقون في حَبْك المكائد لإبادتكم.. ما لم تواجهوهم بالعمق نفسه، وما لم تصمدوا وتواظبوا على الصمود، تقذف بكم العواصف بعيدًا، وتتناثرون كأوراق الخريف.

لقد شملكم الله بحفظه حتى اليوم، أسأله تعالى أن يديم حفظه عليكم.. إذا بقيتم على هذ الإخلاص والتجرد، على هذا الأداء الرفيع والسلوك العميق، والإيمان بهذا "الحُلم الغاية"، والثبات عليه والتمسك به، فإن الله سيقابل كل خطوة إليه بخطوات، سيقابل المشي إليه بالهرولة.. تصنعون شيئًا بحجم قطرة فيجعلها عشر قطرات، بل مائة قطرة حسب إخلاصكم وعمق نيتكم.

احرصوا على العمق في العبودية، أعطوا الإخلاص عناية خاصة، الإخلاص يمنح العمقَ قيمتَه الحقيقية. ذرة من عمل خالص تَفضُل أطنانًا من عمل بلا إخلاص، هكذا يقول الأستاذ النورسي. تحرّوا مرضاة الله في

أعمالكم.. إن رضي عنكم وقبِل بكم واقتضت حكمته ذلك، يوجّه قلوب الناس إليكم بالقبول، حتى وإن لم تطلبوا ذلك. لتكن غايتنا الأساس في هذه الخدمة المباركة تحقيق مرضاته سبحانه لا غير. الأمر مكفول بعناية الله، فعلينا بالجد والإتقان، وعلينا كذلك بالإخلاص والتجرد.

لا تدمروا الأصول بسوء أسلوبكم

ألم يقل فخر الإنسانية ﷺ ليبلغنّ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار؟ لقد أثنى القرآن على هذه الأمة المباركة ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾(آل عمران:١١٠). يا أمة محمد! أنتم خير أمة أخرجت لحمل الناس إلى الخير، تحثّون على الصدق والجمال وفق الأصول الصحيحة وتنشرونها، تسعون إلى منع الشر والانحراف والسيئات.. تفعلون ذلك بدافع إيمانكم.

أجل، بعد أن ذُكر المنافقون بأوصافهم، جاء ذكر المؤمنين بهذه الخصال الرفيعة. كثيرة هي الأماكن التي ذُكر فيها المؤمنون وحُمّلوا مهمة نشر الحقيقة وإبعاد الناس عن المساوئ. ستقومون بهذه المسؤولية.. هذا أمر لا بد منه، هذا من الأصول الأساسية. أما الأسلوب فعليكم أن تضبطوه وفق المبادئ التي أرساها المجتهدون، ووفق الكليات التي وضّحها المجددون الذين يبعثهم الله في كل قرن.

لا تدمروا الأصول والثوابت بسوء أسلوبكم.. حذار أن تخرقوا الأصول بأخطاء أسلوبية. هذا موضوع في غاية الأهمية. احرصوا على أن تحتكموا إلى العقل المشترك. تشاوروا فيما بينكم، قولوا "هناك مسألة، لكنّ عرْضَها قد يثير ردة فعل الناس، فكيف نعبر عنها يا ترى؟".

هذه من الديناميات الأساسية التي تحافظ على حيويتكم.. وهناك أمر آخر، وهو أن تقدموا تلك المحاسن في معارض مختلفة، تقدمونها سلوكًا وحالاً وامتثالاً للناس أجمعين.. ليست العبرة بكثرة الكلام على المنابر، الأصل أن تتمثلوا "إذا رُؤي ذُكر الله". هذه من السمات البارزة لدى العظماء في علم الرجال. من إذا رأيته ذكّرك بالله، هذا هو المؤمن الحق.

يا من إذا سجد تجلى الله، قيل هذا في سيدنا رسول الله ﷺ. القرآن الكريم يصف تقلّباته أثناء السجود ﷺ: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾(الشعراء:٢١٩). إنه ﷻ يرى كيف تتقلب وسط الساجدين لكي تقوم بمهمة العبودية على أكمل وجه، يرى كيف تُجهد نفسك لكي يكون هؤلاء الساجدون عبادًا لله حقًّا. من يراكم على هذه الحال من الاحتراق سيتساءل "ما القصة؟ لماذا أنتم هكذا؟" هذا السؤال فرصة للتعبير عن قضيتكم، فرصة لتوضيح سلوككم أو شرحه أو وضع حاشية عليه.. فرصة ذهبية للحديث عن الحقيقة، وهذا هو المطلوب. ■

(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش. هذه النصوص مترجمة من دروس الأستاذ الخاصة.

جواد الفلاق*

بين الجابري وطه عبد الرحمن

لقد ألف محمد عابد الجابري في بداية تعامله مع التراث كتابه "نحن والتراث"، ولعل أهم ما يميز الكتاب هو عرضه لمشروع "قراءة جديدة للتراث"، قراءة تقول عن نفسها أنها معاصرة. وحسب الجابري فإن هناك ثلاث طرائق رئيسية في التعامل مع التراث العربي الإسلامي، وهذه الطرق تتخذ ثلاث صور منهجية في مقاربة التراث؛ المقاربة التقليدية، والمقاربة الاستشراقوية، والمقاربة الماركسية.

قراءات التراث عند الجابري

القراءة التراثية للتراث، هي قراءة تقليدية ترتكز على التعامل التقليدي مع التراث، هذا التعامل مرده إلى البيئة الثقافية التي أنتجت هؤلاء المفكرين الذين تخرجوا من المعاهد العتيقة، وتوصف مقاربتهم بكونها سلفية ماضوية تغيب عنها روح الجدة والإبداع والنقد العلمي الهادف إلى غربلة التراث والاستفادة منه، بل تركن إلى إعادة إنتاج ما سبق إنتاجه، لذلك سمى الجابري هذه القراءة بـ"القراءة التراثية للتراث"، وقد وقعت في آفتين اثنتين: غياب الروح النقدية، وفقدان النظرة التاريخية، واجترار المنتوج السابق بشكل مجتزأ، "كأنها تكرار للتراث نفسه، مما جعلها تفتقر لعنصري الجدة والمعاصرة". ومعنى هذا أن القراءة التراثية للتراث يسبغ عليها أهلها الطابع

الديني السلفي، الذي يجردها من كل نفحة نقدية، أو رغبة في إخضاع التراث إلى متطلبات الحداثة.

القراءة الاستشراقوية للتراث

إن القراءة الاستشراقوية للتراث العربي الإسلامي وُسِمت بكونها نزعة استعمارية، تعادي كل ما هو إسلامي واصفة إياه بالرجعية والتخلف، ويظهر ذلك بجلاء عند بعض المستشرقين الذين أنكروا أي وجود للفلسفة الإسلامية، رافعين معاول الهدم ضد علم الكلام والتصوف الإسلامي، مدعين أن العقلية السامية لا تستطيع أن تفكك وتركب في إطار تجريدي يمكّن من بناء أنساق فكرية كما ذهب المستشرق "أرنيست رينان".

إن المركزية الأوروبية تدّعي أنها النموذج المعرفي الأوحد، لذلك ترجع كل ما هو عربي إلى "المنبع" الغربي، ذلك أن المستشرق "يفكر شموليًا في الفلسفة الإسلامية لا بوصفها جزءًا من كيان ثقافي عام هو الثقافة العربية الإسلامية، بل بوصفها امتدادًا منحرفًا أو مشوهًا للفلسفة اليونانية، وبالمثل فلا يتردد في ربط الفقه الإسلامي بالقانون الروماني وما خلفه في المنطقة العربية من آثار وأعراف". ولذلك فالجابري يصفها أيضًا بكونها قراءة سلفية مستندة إلى سلف أوروبي هذه المرة.

إن المستشرق "عندما يتجه إلى الثقافة العربية الإسلامية بنظرته التجزيئية، لا يعمل على رد فروعها وعناصرها إلى جذور وأصول تقع داخلها، بل هو يجتهد كل الاجتهاد في رد تلك الفروع والعناصر إلى أصول يونانية، أصول "النهر الخالد"، نهر الفكر الأوروبي الذي نبع أول مرة من بلاد اليونان".

ولم يتوقف الفكر الاستشراقي عند أهله، بل كوّن قاعدة من المثقفين العرب الذين تلقفوا هذه الأفكار، وأصبحوا مروّجين ومنتجين لها بفعل التبعية الثقافية، حيث أصبحت "الصورة العصرية الاستشراقوية الرائجة في الساحة الفكرية العربية الراهنة عن التراث العربي الإسلامي.. صورة تابعة، إنها تعكس مظهرًا من مظاهر التبعية الثقافية".

القراءة الماركسية للتراث

هذه القراءة كذلك اتكأت على عصا السلفية الماركسية

الجابري يبني أطروحته على نقد القراءات التي وصفها بالسلفية؛ وهي السلفية الدينية والسلفية الأوروبية والسلفية الماركسية، ونفس الطريق سلكه طه عبد الرحمن ليشيد أركان نظريته في التراث، فهدم نظرية الجابري لما بدا له فيها من عيوب وتناقضات.

السابقة، هدفها تكرار تطبيق المنهج الماركسي -كما طبق في الواقع الأوروبي- على التراث الإسلامي، دونما مراعاة لخصوصية هذا التراث، فهي أيضًا تشتغل ضمن نزعة المركزية الأوروبية. وتختلف النزعة الماركسية عن النزعة الاستشراقوية، "بكونها تعي تبعيتها للماركسية وتفاخر بها، ولكنها لا تعي تبعيتها الضمنية للإطار نفسه الذي تصدر عنه القراءة الاستشراقوية لتراثنا، هي الأخرى مؤطرة داخل إطار المركزية الأوروبية، إذ تقوم على الفهم من خارج هذا التراث، مثلها مثل الصورة الاستشراقوية.

ويلاحظ الجابري أن هذه القراءات كلها، وقعت في عيبين منهجيين متلازمين؛ غياب الموضوعية، وغياب الرؤية التاريخية، ذلك أن "القراءات الثلاث التي تحدثنا عنها قراءات سلفية، وبالتالي لا تختلف جوهريًا عن بعضها بعضًا من الناحية الإبستمولوجية".

المنهجية في التعامل مع التراث

يرى محمد عابد الجابري أن التراث العربي الإسلامي يتمثل في جملة من العلوم الإسلامية؛ كالعقيدة، والشريعة، واللغة، والأدب، وعلم الكلام، والفلسفة، والتصوف وغير ذلك. فالتراث هو كل ما أنتج في "فترة زمنية تقع في الماضي، وتفصلها عن الحاضر مسافة زمنية ما تشكلت خلالها هوة حضارية فصلتنا -وما زالت تفصلنا- عن الحضارة المعاصرة، الحضارة الغربية الحديثة. ومن هنا، ينظر إلى التراث على أنه شيء يقع هناك. فعلاً، ما يميز التراث العربي الإسلامي في نظرنا، هو أنه مجموعة عقائد ومعارف وتشريعات ورؤى، بالإضافة إلى اللغة التي تحملها وتؤطرها، تجد إطارها المرجعي التاريخي والإبستمولوجي في عصر التدوين".

hiragate.com

وتأسيسًا على هذا النظر، يقترح الجابري قراءة بديلة للقراءات الثلاث، قراءة تقوم على الفصل والوصل، فهي تتأسس على تلافي الأخطاء المنهجية التي وقعت فيها القراءات التي نعتها بالتراثية. وقد تحدّث الجابري عن ثلاث خطوات منهجية لقراءة التراث:

١- القطيعة مع القراءة التراثية للتراث؛ أي التحرر من الرواسب التراثية.

٢- فصل المقروء عن القارئ، وذلك لحل مشكلة الموضوعية في القراءة التراثية.

٣- وصل التراث بنا، أي جعل التراث معاصرًا لنفسه ومعاصرًا لنا في الآن نفسه، وذلك بإعادة إنتاجه بشكل جديد يمكن من عصرنته وجعله يواكب تطور المجتمع، لأن "الإبداع بمعنى التجديد الأصيل، لا يتم إلا على أنقاض واقع قديم، وقع احتواؤه وتمثله وتجاوزه بأدوات فكرية معاصرة".

أما رؤية الجابري لمن يقارب التراث، فهو إما أن يكون "رشديًّا" أو "رجعيًّا"؛ حيث أعطى لابن رشد مكانة مرموقة، إذ جعل الروح الرشدية وسيلتنا الوحيدة إلى التقدم والتحضر، وذلك لأنها شكلت قطيعة إبستمولوجية مع الفلسفة الإسلامية المشرقية، السينوية والفارابية، على كافة المستويات، المنهجية والمفاهيمية مما يجعلها مفتاحًا لتحررنا وتقدمنا الفكري.

وخلاصة القول، إن الجابري قد حصر قراءات التراث في ثلاث، وصفها كلها بكونها قراءات تراثية سلفية، إما تستند إلى سلف عربي أو سلف أوروبي، لذلك وجب التخلص منها، وإنتاج قراءة جديدة تقوم على تلافي الأخطاء السابقة، وتعالجها عبر وصل التراث بنا وجعله معاصرًا لنا، وفصل القارئ عن المقروء من أجل تحقيق شرط الموضوعية العلمية.

مقاربة طه عبد الرحمن للتراث

لقد اضطلع طه عبد الرحمن بدور محوري في إيجاد أفق عربي إسلامي، ينتج فلسفته الخاصة التي تعيد النظر في أسباب تخلف العقل العربي وتعطل النفس الإبداعي في ثقافتنا العربية الإسلامية المعاصرة، من خلال تشخيص العلل ونقد المشاريع الفكرية التي قاربت هذه العلل، سواء المشاريع المحلية أو الأجنبية من خلال العدة المنهجية والمعرفية التي يتسلح بها الرجل. فقد ألف كتابه "تجديد المنهج في تقويم التراث"، حيث شيد نظريته في التراث -قراءة وتقويمًا- وفق منهج يعتبره "غير مسبوق ولا مألوف؛ فهو غير مسبوق، لأننا نقول بالنظرة التكاملية حيث يقول غيرنا بالنظرة التفاضلية، وهو غير مألوف، لأننا توسلنا فيه بأدوات "مأصولة" حيث توسل غيرنا بأدوات منقولة".

وقد تنبه طه عبد الرحمن إلى أن جل الذين اشتغلوا بالتراث -عربًا وعجمًا- تميزوا بميزتين: قلة الاطلاع، وضعف الاستئناس بنصوص التراث. ويرى أن جل النقاد العرب إنما اتبعوا مناهج واشتغلوا بمفاهيم جلّها منقول من ثقافة لا تمت بصلة للثقافة التي ينتمي إليها التراث المدروس؛ هذه المناهج والآليات المستمدة من ثقافة الغرب، هي إما "آليات عقلانية مجردة، أوآليات فكرانية مسيسة".

ومن أجل أن يبني طه عبد الرحمن نظريته الجديدة للتراث، كان لا بد أن يهدم النظريات السابقة، لذلك خصص فصلين من كتابه لتقويم مشروع الجابري، ذلك أن هذا الأخير هو أكثر من اشتغل بالتراث.

لقد وضع الكاتب أحد الفصول تحت عنوان: "التعارض الأصلي لنموذج الجابري في تقويم التراث"، وحاول بيان التناقض الذي وقع فيه الجابري، إذ وقع في تعارضين اثنين: أحدهما التعارض بين القول بالنظرة الشمولية والعمل بالنظرة التجزيئية. وثانيهما التعارض بين الدعوة إلى النظر في الآليات والعمل بالنظر في مضامين الخطاب التراثي في الآليات".

إن الجابري في نظر طه عبد الرحمن، سقط في القراءة التجزيئية، ويتجلى ذلك في تقسيمه للتراث إلى تقسيمات ثلاث؛ "عرفانية" و"بيانية" و"برهانية" مميزًا بينها في المكانة، حيث جعل المعرفة البرهانية على قمة المعرفة العقلانية، بينما نزل بالمعرفة العرفانية إلى أدنى درجات العقلانية، ووضع المعرفة البيانية في المرتبة الوسطى بين البرهان والعرفان. وعلى هذا الأساس فقد وقع الجابري في مغالطة منطقية سماها طه عبد الرحمن بمغالطة "ازدواج المعايير"، ذلك أنه استخدم معايير متعارضة لأن كل حقل من الحقول المعرفية الثلاث

hiragate.com

hiragate.com

مختلف عن الآخر؛ فالبرهان ينبني على الاستدلال العقلي، بينما البيان ينبني على النسق اللفظي، أما العرفان فينبني على ما هو صوفي عرفاني. وعلى ذلك، فإن "التقسيم الثلاثي "البرهان" و"البيان" و"العرفان" تقسيم فاسد، ودليل فساده ازدواج المعايير المتبعة في وضعه".

في نظر طه عبد الرحمن، إن الجابري يعاني قصورًا في الإحاطة بالآليات التي وظفها في قراءة التراث، إذ لم يعر اهتمامًا لتقادمها عند أهلها ولا إلى الظروف التي أنتجتها، فوقع في جسيم الأخطاء، فلم يحسن استعمال الآليات التي توسل بها الجابري، ذلك أن "استخدام الجابري لآلية المقابلة، يخرج خروجًا عن الضوابط المنطقية المقررة فيها، سواء فيما تعلق منها بالمطابقة أو ما تعلق منها بالمعارضة، فقد طابق بين اللامعقول العقلي، ونقيض المعقول الديني.. فيصير المعقول الديني عنده بمنزلة اللامعقول العقلي، خلافًا للمسلمة التي صرح بها".

ومما سبق يتبين أن طه عبد الرحمن، انتقد الجابري انطلاقًا من ملحظين اثنين: الأول أن الجابري فاتته فرصة الإحاطة بالتقنيات الإجرائية والضوابط المنطقية للآليات التجريدية والتسييسية التي طبقها على التراث، والثاني أن الجابري سقط في تعارضين اثنين وهما القول بالنظرة الكلية، والعمل بالنظرة الجزئية، ثم الاشتغال بالمضامين عوض الاشتغال بالآليات كما وعد.

إن نقد طه عبد الرحمن لعمل الجابري، ليس سوى خطوة في طريقه لبناء نظريته حول التراث؛ نظرية تتأسس على رؤية تكاملية توظف آليات أصيلة من التراث نفسه مراعية خصوصياته الثقافية والحضارية، دون إغفال أهمية المفاهيم والأدوات التي تمدنا بها الدراسات الفلسفية والعلمية المعاصرة، بعد فهم واستيعاب رصيد الحضارة الغربية الفكرية والعلمية استيعابًا سليمًا وصحيحًا.

إن أهم ميزة منهجية يؤكد عليها عبد الرحمن التي تضمن له النظرة الكلية، هي الاشتغال بآليات التداخل المعرفي، أي الانشغال بالبناء الآلي للتراث بدل الاقتصار على الاشتغال بمضامينه كما فعل الجابري، ذلك أن "التقويم الذي يتولى استكشاف الآليات التي تأصلت وتفرعت بها مضامين التراث كما يتولى استعمالها في نقد هذه المضامين، يصير لا محالة إلى الأخذ بنظرة تكاملية".

إن هذه المقاربة التكاملية تنظر للتراث من جهة تداخله المعرفي؛ هذا التداخل الذي يميز فيه طه عبد الرحمن بين درجتين اثنتين: درجة التراتب بين العلوم والمعارف، ودرجة التفاعل بين مختلف العلوم وتأثير بعضها في البعض الآخر.

إن الحقيقة التكاملية للتراث تكمن في التداخل الذي حصل بين المعارف والعلوم، والتفاعل الذي حصل بينها بدرجات مختلفة، إذ يبرز تراتب العلوم علاقات التقارب والتشابه والتدرج في تحصيل المعارف حسب طبيعة كل مجال، وتفاعل العلوم يبرز مدى التعالق والتشابك بين المجالات المعرفية وارتباط بعضها ببعض. ويميز طه عبد الرحمن في النظرة التكاملية بين التداخل الداخلي؛ ويعني حصول الاندماج بين علمين أصليين كحال علمي أصول الفقه وعلم الحديث مثلاً، ويقدم الشاطبي بوصفه أنهض مثال على هذا التداخل المتمثل أساسًا في علم أصول الفقه، وعلم الأخلاق؛ لأن الحكم الشرعي حسب طه عبد الرحمن، يجمع بين وجه فقهي ووجه أخلاقي متشاكلين في البنية ومتكاملين في الوظيفة.

والتداخل الخارجي؛ ومعناه حصول اندماج بين علمين أحدهما أصلي وآخر غير أصلي، مع ضرورة ضبط اتجاه هذا الاندماج. ويرى طه عبد الرحمن "أن ابن رشد هو أنهض مثال على هذا النوع من التداخل الخارجي البعيد من خلال إدخال علم الكلام في الفلسفة الإلهية في خطابه.

إن كلتا الأطروحتين تقوم على نقد الأطروحات السابقة؛ فالجابري يبني أطروحته على نقد القراءات التي وصفها بالسلفية؛ وهي السلفية الدينية والسلفية الأوروبية والسلفية الماركسية، حيث بين عيوبها وطرح نظرية الفصل والوصل لتكون بديلاً لتلك القراءات، ونفس الطريق سلكه طه عبد الرحمن ليشيد أركان نظريته في التراث، فهدم نظرية الجابري لما بدا له فيها من عيوب وتناقضات، بل يتجاوز ذلك ليوجه نقده للذي قدسه الجابري ألا وهو ابن رشد، ليبين تأثر فيلسوف قرطبة بعلم الكلام. ■

(*) كاتب وباحث مغربي.

hiragate.com

د. ناصر أحمد سنه*

أعضاء بلا فائدة

خلال سنوات الدراسة، كنت أستغرب عندما أسمع بعض الأساتذة يقولون "هذا العضو لا وظيفة له" أو هو "زائد ضامر لا فائدة منه، ويمكن استئصاله دون مشاكل".. فكنت أقول في نفسي "لماذا يخلق الله عضوًا بلا فائدة ولا وظيفة؟". سنحاول عبر هذه السطور إلقاء الضوء على بعض الأمثلة التي لا زال يرد العلماء أنها بلا فائدة بينما الواقع العلمي يؤكد خلاف ذلك.

الزائدة الدودية

عند دراسة جهازنا الهضمي يرتبط ذكر "الزائدة الدودية" (Appendix) بأنها "بلا وظيفة"، وعند استئصالها -جراحيًّا- يقال إنها بلا فائدة وتتعرض للالتهاب/الانفجار. ولكن مع حلول عام ١٩٩٧ تبيَّن أن للزائدة دورًا تقوم به كجهاز مناعي للبالغين، حيث تولّد الأجسام المضادة بإيواء البكتيريا النافعة، وتقدّم الدعم لنموها، وربما إعادة التلقيح من القولون في حال اكتمال تطهير محتويات الأمعاء بعد التعرض لنوبات إسهال أو مسببات أمراض، إنها بمثابة منزل آمن للبكتريا المفيدة والمتعايشة.

"الزائدة الدودية قد تنقذ حياتك" عنوان مقال الدكتور "بيل باركر"، نشرته مجلة "ساينتيفك أميريكان" في شهر يناير عام ٢٠١٢، وجاء فيه: "إن البكتريا التي تؤويها الزائدة الدودية تتصدى للهجوم البكتيري كالكوليرا وغيرها". كما أن لها أهمية مناعية للأجنة بدءًا من أسبوعها الحادي عشر من عمرها حسبما أوضح "لورين مارتن جي"، أستاذ علم وظائف الأعضاء بجامعة ولاية "أوكلاهوما". وقد أظهرت دراسات سريرية بمستشفى جامعة "وينثروب"، أن الذين تم استئصال زائدتهم الدودية، أكثر عرضة -مقارنة بالأصحاء- للإصابة بهجوم بكتيري مُمرض.

"وليام باركر" الباحث في علم المناعة في المركز

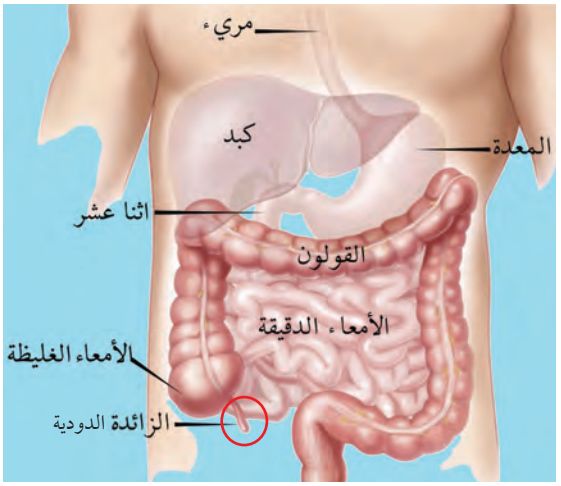

الطبي بجامعة "ديوك"، يذكر في مقالة نشرتها مجلة "لايف ساينس": "حان الوقت لتصحيح الكتب المدرسية من النصوص البيولوجية التي لا تزال تشير للزائدة الدودية باسم عضو أثري ضامر".

أضراس العقل

تَظهر ضروس العقل (Wisdom Teeth)، ما بين السادسة عشر والخامسة والعشرين من عمر الإنسان. ووفق التطوريين "تنمو متأخرة، ولا فائدة منها لطحن الطعام، ونموها يسبب مشاكل لعدم تناسبها مع حجم الفك الصغير نسبيًّا عن حجم نظيره في أسلاف البشر. كما يؤكدون أن "البشر القدامى كانوا يأكلون كميات كبيرة من النباتات بسرعة، فكان لدينا مجموعة إضافية من الأضراس، وعند تطور

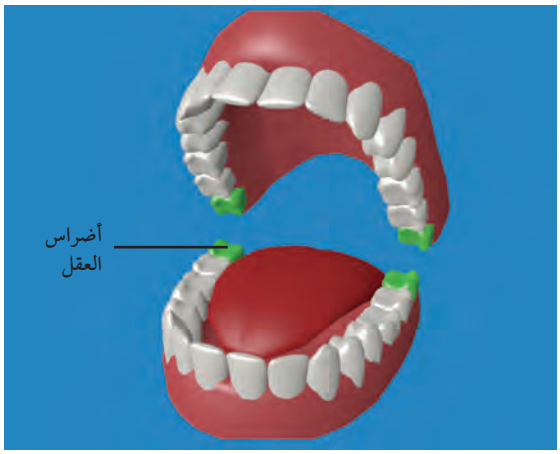

العادات الغذائية، أوقف الانتخاب الطبيعي قدرتنا على هضم السللوز، ونما الفك بشكل أصغر، فلا لزوم لأسنان العقل"، لذا يتم التخلص منها -جراحيًّا- بنسبة كبيرة.

لكن الدكتور "برايس" وفريقه، قاموا بدراسة نمط التغذية في جماعة عرقية منعزلة بـ"جزر تونجا" قبل الحرب العالمية الأولى، تعتمد في غذائها على الأطعمة الطبيعية، ثم بعد الحرب تغير نمطها الغذائي إلى أغذية لينة ومصنعة (نشا، وسكر، ودقيق أبيض ناعم ..إلخ) بدلاً من جوز الهند المجفف، فظهر الجيل الثاني يعاني من انحشار ضروس العقل. كما أوضحت دراسات عدة، عدم وجود "أدله جينية" تتجه نحو القضاء على أضراس العقل كما يروج التطوريون، بل تبين حدوث مضاعفات معهودة بسبب خلع هذه الضروس وفَقْد رصيدها الهام.

العصعص

العصعص (Os Coccygis) عظم ناتج عن اندماج الفقرات السفلية الأربع من العمود الفقري، يلي العجز. إن

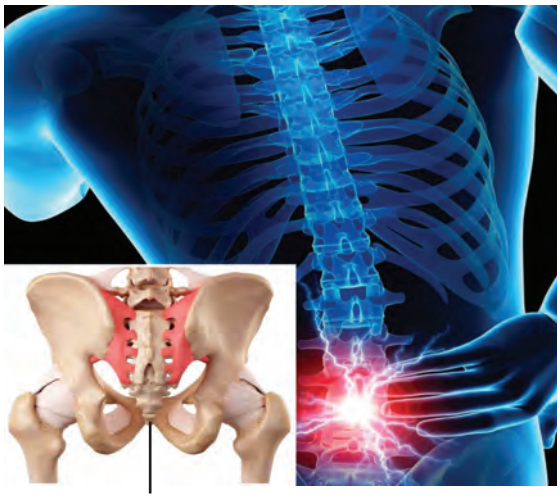

العصعص

hiragate.com

العصعص أو "عجب الذنب" جزء حيوي يعمل كنقطة ارتكاز مستقرة مع عظام وأربطة وعضلات ومحتويات منطقة الحوض. وهام لاستقامة المشي، ولامتصاص صدمات القعود والوقوع، كما أنه بنية داعمة لوزن الجسم عند الجلوس والميل للخلف، أما سطحه الخلفي فيدعم ويثبت عضلات فتحة الشرج.

العضلات الناصبة للشعر والقشعريرة

العضلات المُقِفّة للشعر: عضلات صغيرة مُرتبطة بجريبات الشعر في الثدييات، ويؤدي انقباضها إلى انتصاب الشعر و"القشعريرة" (Goose Bumps).إن لتوزيع شعر جسم الإنسان والقشعريرة فائدة في توزيع العرَق -حيث يمتلك الإنسان غددًا عرَقية موزعة على جسده- وسحبه وتبخيره، لتبريد المناطق كثيفة الشعر -كالذراعين والساقين- وللعزل وحفظ حرارة الجسم وتنظيمها.

القشعريرة

أما شعر الرأس له فائدة لحماية فروة الرأس من البرودة وأشعة الشمس الضارة، وخصوصًا مع ارتفاع درجة الحرارة. وشعر الحاجبين يحمي العينين من تساقط قطرات العرق. كما يعمل الشعر كمستقبل حسي؛ فترتبط نهايات بصيلاته بألياف عصبية تستجيب للمؤثرات الخارجية -ميكانيكية وإشعاعية- ونقل الرسائل للجهاز العصبي، ومن ثم تحدث الاستجابات وفق المؤثر.

كما يعمل الشعر كجرس إنذار للحشرات المتطفلة المُمرضة للجسم؛ كالبراغيث والناموس والذباب وغيرها.. فضلاً عن مساهمة القشعريرة في نقل إفرازات الغدد الدهنية الموجودة بمسام الجلد (عملية تشحيم)، مما يرمم ويجدد طبقة البشرة. كما أن شعر الوجه لا ينتصب، لأن عضلات الوجه تقوم بالتعبير عن الانفعالات المختلفة،

كالابتسامة والتجهم والحزن وكافة الخلجات الإنسانية.

الجفن الثالث

إذا كنت تمتلك قطة أو كلبًا أو زاحفًا أو طائرًا أليفًا، فقد رأيت جفنهم الثالث (Third Eyelid)؛ جفن شفاف يُنسحب -أفقيًا- فوق العين لحمايتها ولترطيبها مع قدر من الرؤية. ويقولون بأن البشر ومعظم الرئيسيات لا تحتاج هذا الجفن، لذا ورثنا بقاياه. فهو ثنية هلالية وردية صغيرة من نسيج ملتحم بزاوية العين الداخلية. إن افتراض أثرية الجفن وصغره مقارنة بنظيره عند جنس آخر، منطق يفتقر إلى المنهجية العلمية. إن تلكم الثنية الهلالية الوردية تعمل للحفاظ على رطوبة العين، وتصريف الدموع بانتظام داخل منظومة متكاملة.

عضلات الأذن

يقولون إن الحيوانات -كالحمير والكلاب والقطط والأرانب وغيرها- تستعمل عضلات الأذن الخارجية، لتحريك صيوان الأذن نحو مصدر الصوت سواء كان عدوًّا أو صيدًا، ولا يزال البشر يملكون آثارًا ضعيفة لهذه

عضلات الأذن

hiragate.com

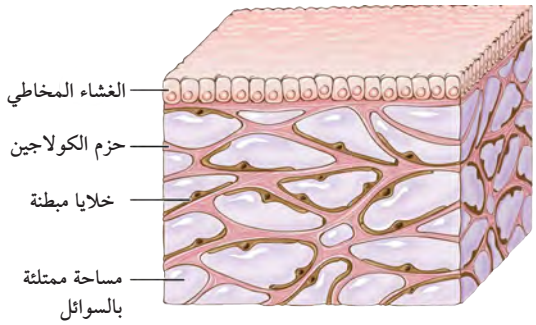

النسيج الخلالي

العضلات، ولا حاجة لما ورثوه.. إذن كيف سيكون وضع صيوان الأذن البشرية بدونها؟ إنها مسؤولة عن التثبيت المُحكم له على الجمجمة وفروة الرأس.

العضلة الأخمصية

عضلة تستخدم من قبل الحيوانات -كالقردة- لتتمسك وتتلاعب بالأشياء بأقدامها وكذلك بأيديها. البشر لديهم هذه العضلات، لكنها الآن لا تحتاج إليها. وكثيرًا ما ينقلها الأطباء لإعادة بناء نسيج في أجزاء أخرى من الجسم. إن ٩٪ من البشر المعاصرين يولدون دونها. إن دليل الغياب هو خطأ علمي فادح، يجعلنا نضع قائمة لا تنتهي من الأعضاء على اعتبار ذلك النهج. هذه العضلة لها أهمية معروفة في الجهاز العضلي بالساق، بعكس الادعاء التطوري الذي لا أساس له من الصحة. وتم اكتشاف ترابط واضح بينها وبين آلام الركبة في حالات سريرية، مما ينبئ بوظائف غير مرصودة بينها وبين عضلات الساق.

النسيج الخلالي

تبين أن لدينا جهاز ملفوف حول أجهزتنا الأخرى، وكان يختبئ في مرمى البصر طويلاً. ويطلق على العضو المصنف حديثًا اسم "الأنسجة الخلالية" (Interstitial Tissues).

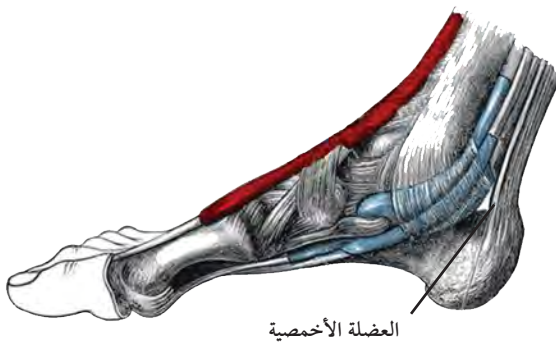
العضلة الأخمصية

واعتقد العلماء -سابقًا- أنها أنسجة عادية نسبية لملء الفراغ بين أعضائنا، لكنها ممتلئة بالفعل بالسوائل، مدعومة بشبكة من الكولاجين، وتساعد على حماية أعضائنا -كوسائد- من الصدمات الخارجية أثناء حركتنا.

علم الغدد

لو طالعت قائمة التطوريين للأعضاء الأثرية (الضامرة) كقائمة "روبرت فيدرشايم" ستتعجب لما تتضمنه من أعضاء اكتشف فيما بعد أهميتها الحيوية البالغة. فقد أرفق الغدة الصنوبرية، والغدة الصعترية، والغدة النخامية، واعتبرها بلا فوائد! حتى تم اكتشاف الهرمونات ودور الغدة الصنوبرية في تنظيم إيقاع الساعة البيولوجية، ودور الغدة الصعترية في جهاز المناعة، ودور الغدة

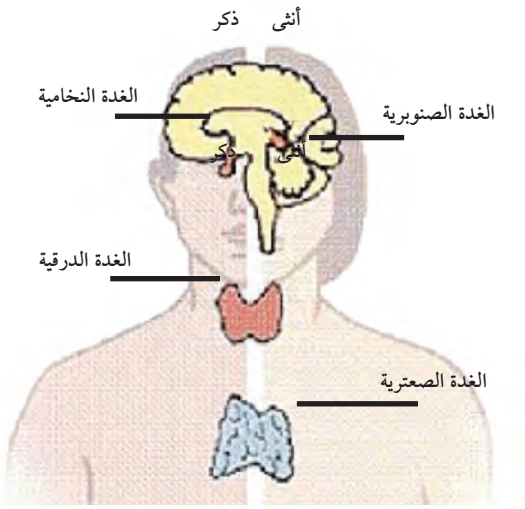

النخامية وتحت المهاد في تنظيم الهرمونات التي من أهمها هرمون النمو GH، والهرمونات المنبهة للأعضاء التناسلية.

في الختام

إن حجة التطوريين الوحيدة، هي عدم القدرة على تحديد وظيفة عدد من الأعضاء ومن ثم جزموا يقينًا أنها بلا وظيفة ولا فائدة. وهذه مغالطة الاحتكام إلى الجهل، حيث "اعتقاد أن شيئًا ما باطل، ما دام لم يُثبت أحد بالدليل أنه حق". فمنطق بناء نتائج على الجهل والثغرات المعرفية ما هو إلا دليل على بطلان الادعاء. ■

(*) كاتب وأكاديمي / مصر.

hiragate.com

حمزة بومليك*

الصداقة
من العنف إلى اللاعنف

منذ أن قُتل هابيل على يد أخيه قابيل والإنسانية تعيش على وقع سلسلة صراعات لا تكاد تنتهي؛ بفعل تنامي حدة الأحقاد التي يكنها الإنسان لأخيه الإنسان.. فبدل أن يُشرع في بناء جسور التواصل والحوار بين الشعوب لبناء مجتمع يضمن للكل حقه في العيش بهناء وسعادة، اتسعت هوّة الخلاف وهو ما تسبب في استفحال ظاهرة التعصب بشتى أشكالها، تعصب للفكرة وللجنس وللدين. وهذا الأخير -التعصب الديني- أضحى خطرًا محدقًا يهدد إنسانية الإنسان بالإرهاب والقتل دون أدنى شفقة، لأن الدين قد يصبح خطرًا إذا ما استُغل في تدمير الإنسان. ولا غرو في

أن الحرب التي تنشُب عن خلفية دينية، تكون عواقبها وخيمة على الإنسان وعلى الكون، لأن الطرفين فيها يعتقدان أنهما على صواب، مستمدين شرعية أفعالهم من الدين نفسه، وحجتهم في ذلك تطبيق آوامر الإله. فالناظر في تاريخ الديانات، يجدها حُبلى بالصراع والاقتتال، وهذا راجع لفهم الناس، وإلا فروح الدين تهدف إلى إسعاد البشر في العاجل والآجل.

ولما كانت روح الدين تدعو إلى التعارف بالانفتاح على الآخر المخالف دينيًا وعرقيًا، فإننا لا نجد أي بُدّ من الصداقة ما دمنا نعيش في عالم واحد ونتنفس هواء واحدًا، إيمانًا منا بقيمة الصداقة باعتبارها قبولاً واحتواء، تتطلب منا غض الطرف عن الخلافات التي هي في جوهرها طبيعية والانتقال إلى واقع يقبل الجميع، ويُسهم في بناء المشترك الإنساني الذي يُجمع الكل حول أهميته باعتباره ضرورة للعيش معًا.

ففي الوقت الذي تدعو فيه كل الديانات إلى نبذ أشكال العنف والتعصب، نجد هناك بعض الحالات الشاذة التي تؤوّل النصوص الدينية حسب الأهواء، وتعمد إلى إشهار السيوف في وجه المُخالف تحت ذريعة الجهاد، وغيرها من الخطابات التي لا يمكن لعاقل أن يصنفها داخل الأخلاق ولا الدين، باعتباره (الدين) جاء لخدمة البشرية وتمتيعهم بالسعادة الروحية فكان أن حصل عكس المبتغى؛ لأنه ترجم في العديد من الأحيان إلى حروب دامية راحت في سبيلها أرواح عديدة، وبدل أن يعيش الإنسان حرًا في إرادته أصبح يتملكه هاجس الخوف في التعبيرعن مواقفه وقراراته ، خوفًا من المواجهة مع من يختلفون معه. ولقد ازدادت حدة العنف تلك في السنوات القليلة الماضية، واتخذت عدة تلوينات طائفية دينية وغيرها. فكيف للصداقة أن تنقلنا من العنف إلى اللاعنف؟

في أهمية الصداقة

لدينا كلنا ذاك الصديق الذي نلجأ إليه عند الشدة والضيق، ولم نفكر يومًا أن هذا جوهر الصداقة، إنما نطلب منفعة عرضية تجعلنا بعيدين كل البعد عن جوهر الصداقة المحمودة (صداقة الفضيلة)، فهل الصديق هو من يصاحبنا في وقت المحنة؟ يجيبنا أرسطو بقوله: "الصديق هو من

الصداقة قبول واحتواء، تتطلب منا غض الطرف عن الخلافات التي هي في جوهرها طبيعية والانتقال إلى واقع يقبل الجميع، ويُسهم في بناء المشترك الإنساني الذي يُجمع الكل حول أهميته باعتباره ضرورة للعيش معًا.

يعيش معك، ويتحد وإياك في الأذواق، وتسره مسرّاتك وتحزنه أحزانك". إن الصداقة بهذا الاعتبار هي تجرد من الذات -من الأنا إلى النحن- وهي ضرب من المشاركة الوجدانية. وهذا هو المعنى الحقيقي لصداقة الفضيلة. وعمومًا ينحصر الإنسان بين نوعين من الصداقة، صداقة المنفعة وهي عرضية زائلة تنتهي بانتهاء الغرض الذي يصبو الإنسان إلى تحقيقه على المدى القريب، وصداقة الفضيلة التي تتجاوز كل ما هو محسوس غائي إلى الحب باعتباره أسمى الغايات بين البشر.

إن الإنسان بما هو إنسان يظل وجوده مرتبط بالغير، فإما أن يكون صديقًا أو عدوًا، لأن انتماءه للبشرية يفرض عليه الانخراط بشكل إرادي في الحياة الاجتماعية، لذا لا يُتوقع أن يعيش الإنسان السوي في معزل عن أخيه الإنسان، والصداقة هي التي تسهم في بناء الروابط الاجتماعية وتمتينها، طبعًا إذا ما تغيت روح الإنسان بعيدًا عن الخلافات التي لا يمكن أن تحدث أي مساس بالجوهر الأساسي للإنسان، وهي تقتضي عامل الزمن؛ فكلما طال عمر الصداقة أيقن الإنسان بدوامها، لأن الصداقات العابرة في الغالب ما تكون غايتها بلوغ مصلحة ما، وهي بهذا المعنى لا ترقى إلى "الصداقة الخلاقة" المبنية على الفضيلة وحب الآخر.

أن يكون الشخص صديقًا ليس معناه أن تكون له نفس معتقداتك وأفكارك، فهذا كله أمر شخصي ومن المغالطات الإمساك بمثل هذه الخيوط، واعتبارها حُجة وذريعة لتبني فكرة العنف. قال الجنيد ذات مرة: "لو صحبني فاجر حسن الخلق، كان أحب إلي من أن يصحبني عابد سيء الخلق"؛ فالأكيد أن ما يهمني من الصديق هو خلقه وما يبديه لي من احترام، أما معتقداته

hiragate.com

وأفكاره وغيرهما فهي تخصه هو ولا دخل لي بها. وغير بعيد عن واقعنا الذي نعيشه كثيرًا ما نسمع أو نشاهد أخلاق المخالفين لنا من الغرب، في الوقت الذي تفتقر فيه كثير من مجتمعاتنا لهذا الرقي، وهذا يدفعنا لإعادة طرح السؤال القديم الجديد "لماذا تأخرنا وتقدم غيرنا؟". والواقع أن المجتمع الذي تسوده القيم الأخلاقية هو مثال للتقدم والتحضر، لأنه يؤمن بروح الإنسان والأخلاق التي تتجاوز كل الحدود الدينية والعرقية.

إن ما يدفع الناس إلى ربط علاقات الصداقة هو هذا الإحساس بالنقص، فالصديق هو من يوفر للشخص نوعًا من الأمان وتبادل وشائج الحب، ففي الحالة الاجتماعية تغمر الفرد رغبة قوية تحمله على الانفتاح تجاه الأصدقاء، لتبادل مشاعر الحب والإخاء فيما بينهم، عملاً بأهمية الصداقة في خلق جسور التواصل والحوار بين بني البشر. لذا نجد الصداقة اقترنت بوجود الإنسان داخل الجماعات، فمنذ أن وُجد الإنسان وهو في بحث مستمر عن إنشاء وإقامة علاقات صداقة مع الآخرين، وإن كانت في البداية اتخذت شكل عشائر وجماعات لمواجهة قسوة الطبيعة، إلا أنه ومع تطور الإنسان وبروز تلك الانقسامات التي عرفتها البشرية، أصبح الإنسان يصادق الإنسان لمواجهة أخيه الإنسان بشتى أنواع العنف والتقتيل.

العنف فعل إنساني

بالرغم من أن الإنسان يتميز عن غيره من الكائنات بالعقل والتفكير، إلا أن هذا لم يمنعه من عيش تجربة العنف بشتى أشكالها.. ولا يزال الإنسان يرتكب الجرائم والقتل في حق أخيه الإنسان إلى أن يفنى، فحيث ما وُجد الإنسان وُجد العنف، بمعنى أن العنف مرتبط بوجود الإنسان وملازم له، والعنف يصبح أخطر حينما يواجه بعنف مضاد؛ عندها يصبح البقاء للأقوى، كما هو الحال في الحروب منذ فجر التاريخ إلى اليوم، حيث لا زال الإنسان يحتفظ في ذاكرته الجمعية بصور شنيعة جدًّا.

إن أخطر صور العنف هي تلك التي اقترنت بالتجربة الدينية، بالرغم من الأصوات الداعية إلى التسامح والحوار مع الديانات المخالفة، إلا أن الناس لم يزدهم ذلك إلا إصرارًا وإنتشاء بإزهاق الأرواح. فقد "كان

الديني -ولا يزال- يرمي إلى تهدئة العنف ومنعه من التفجر، وبكلام أوضح، فإن هدف هذه المسلكيات الدينية والأخلاقية هو تحقيق اللاعنف بطريقة مباشرة". ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى عقول تَقبل الآخر، وتعتبره فعالاً في بناء المشترك الإنساني والحفاظ عليه، للحد من هذا العناد والتعصب في التعاطي مع المسألة الدينية؛ وبالتالي النظر إلى الإنسان الآخر على أنه قيمة القيم، بمعنى أن القيمة التي يتصف المرء بها يجب -قطعًا- أن تَخدِم الإنسانية جمعاء، وأن تحقق الخير الأسمى لكل إنسان، وأن تكون كونية الطابع، حتى تتحصل لديها تلك الدلالة المفاهيمية التي ينص عليها مجال القيم والأخلاق، وحتى الدين.

يكاد العداء أن يكون سمة ملازمة لكل أخوين في العهد القديم والأساطير الإغريقية على السواء، حيث يبدو كلاهما مدفوعًا بما يشبه الحتمية القاهرة إلى ممارسة العنف ضد الآخر". فالإنسان مدفوع لممارسة العنف ضد أخيه الإنسان، فحتى في الأوقات التي نظن فيها أننا بعيدون عن ممارسة العنف والعدوان نكون حقًّا

hiragate.com

ممارسين للعنف بأي صيغة من الصيغ. "فالعالم ليس بئيسًا إلا في أعين الذين يسقطون عليه بؤسهم.

الصداقة من العنف إلى اللاعنف

إن الصداقة باعتبارها حاجة إنسانية أساسية، تهدف إلى إسعاد الناس فيما بينهم، وهي بذلك تتبوأ أعلى الدرجات في سلم الحاجات لدى الإنسان، إذ نجد الإنسان الذي حقق التوازن النفسي والتوافق الاجتماعي، هو الذي نجح في خوض تجربة الصداقة. فكلما نجح الإنسان في كسب صداقات خارجة عن الوسط الذي يعيشه -مثال العائلة- اكتسب مناعة أوفر تُمكّنه من العيش بسعادة، وهذا ما نحتاج إليه اليوم في وقت أصبحت فيه الإنسانية تعيش على وقع الفرقة والانقسام، حتى بات الكل يعيش نوعًا من الغربة، غربة في الحب في الوطن وفي الكون.

وإذا كانت الصداقة رابطة أنطولوجية وروحية تسعى إلى تحقيق الخير الأسمى للإنسان في العاجل والآجل، فإنها تعد أنموذجًا عمليًا لفض النزاعات التي سببتها وحشية الإنسان من عنف هستيري وشغف في إبراز الذات ولو على حساب الآخر، وهذا كله بلا شك يسهم في يناعة العدوان وبالتالي العنف. إن مجرد التفكير في العنف، يجعل الفرد قلقًا يحمل هوية موسومة بشعور عدم الأمان والريبة من الغير، وهذا مبلغ الفرقة والشتات.

إن العنف باعتباره فعلاً لا عقلانيًا موسوم بفرض الذات على الآخر، يصعب مقاربته فلسفيًا رغم أن الفلسفة اهتمت به موضوعًا للنقاش مثل جميع المواضيع التي تهم الإنسان؛ بمعنى هل تتم مناقشته بما هو كائن أم بما يجب أن يكون، والعنف في الحقيقة يمثّل وضعًا تنعدم فيه كل القيم الأخلاقية، وتلغى فيه القوانين. بهذا المعنى يصبح العنف أساسه عدم قبول الذات بالأحرى، وعدم قبول الآخر، فغياب الحوار الداخلي المتمثل في المصالحة مع الذات هو المسؤول عن رفض الآخر.. فما دمنا لم نتدرب بعد على أن نعيش معًا، فالأكيد أننا سنعيش على وقع العنف، وهي دعوة لبناء المشترك والحفاظ عليه من خلال قيمة الصداقة التي "تتمثل في أن نحب الصديق".

خاتمة

لقد عُرفت العلاقات الإنسانية بالتشنجات منذ فجر الإنسانية إلى اليوم، نتيجة الرغبة الجامحة التي تدفع بالإنسان نحو التملك والسيطرة على أخيه الإنسان، الأمر الذي لا يتم قبوله من لدن الآخرين، فيتبلور إلى عنف وصراعات عويصة يصعب الفكاك منها، وتبقى الصداقة حلاً واحدًا ووحيدًا، لأنها تنقل الإنسان من التفكير الذاتي إلى التفكير الجماعي، من الأنا إلى نحن.. وحاجة الإنسان إلى الصداقة تعدل حاجته إلى المأكل والمشرب، فأن يصادق الإنسان هو ضرب من إرضاء للنفس وللروح، ويتحقق له الاستقرار المنشود الذي تحتاجه البشرية اليوم، في ظل هذا الوضع الآيل للتأزم. ■

(*) باحث في الفلسفة والعلوم الإنسانية / المغرب.

المراجع

(١) الحياة المشتركة، لتزفيتان تودورف، ترجمة منذ عياشي، المركز الثقافي العربي ١٩٩٥، الطبعة الأولى ٢٠٠٩.

(٢) الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي.

(٣) العنف والمقدس، لرينيه جيرار، ترجمة سميرة ريشا، مراجعة جورج سليمان، ط١، ٢٠٠٩، مركز دراسات الوحدة العربية.

(٤) التجربة الصوفية بين الحب والعنف، لأنوار حمادي، كتاب جماعي، التصوف والعنف، من تنسيق صابر سويسي، منشورات مؤمنون بلا حدود، ٢٠١٨.

(٥) في الحل والترحال، لميشيل مافيزولي، ترجمة عبد الله زارو، أفريقيا الشرق، ٢٠١٠.

(٦) ما هي الصداقة؟ لجاك دريدا، ترجمة فتحي المسكيني، مومنون بلا حدود، ٦ مارس ٢٠١٩.

hiragate.com

عبد العزيز الإدريسي*

فريد الأنصاري والشخصيات الخمس

التأثر والتأثير

لا شك أن الأستاذ الكريم والعلامة الجليل الدكتور فريد الأنصاري (١٩٦٠-٢٠٠٩م)، يعدّ من أهم الشخصيات العلمية والدعوية التي عرفها المغرب المعاصر. فقد كانت لديه إسهامات نوعية في ترشيد مسيرة العمل الإسلامي، بما خطه قلمه السيال من تأصيلات شرعية، واجتهادات فقهية، ورؤى إصلاحية، وبيانات قرآنية، دل على ذلك ما خلفه من مؤلفات وتصنيفات وأشرطة وتسجيلات.

وأغتنم الفرصة لأذكر أن من سنن الإسلام، ومكارم النبي العدنان، الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم، وذكر مناقبهم والتذكير بسيرهم، ومعرفة عوامل نشأتهم وأهم المؤثرات في حياتهم. وقد ارتأيت في هذا المقال أن أتحدث عن أهم الشخصيات التي أسهمت في تكوين وصياغة هذه الشخصية الفذة والاستثنائية فكرًا وسلوكًا. وأزعم بأن خمس شخصيات بصمت وجدان وفكر وعقل ومنهج فريد الأنصاري، وهي:

١- الحسن الأنصاري

هو الوالد الكريم لفريد الذي يحرص على توقيع كل مقدمات كتبه، وكذلك خواتيمها بالعبارة الآتية: "وكتبه فريد بن الحسن الأنصاري الخزرجي السجلماسي" من

بـاب البـر والوفـاء. ولعل أهم ما بصم بـه الأب ابنه، هي "بصمة المنهج"، يقول فريد في مقدمة كتابه المنهجي[1]: "للمنهـج العلمي عندي قصة تبدأ منذ صباي، فقد طبـع والـدي بيتنـا الـذي نشـأت فيـه بمـا كان يسـميه "النظام"، مـن خـلال أفعاله وأوامره الصارمة حتى النعال، فقد كان علـى كل مـن يدخـل عليـه منـا، أو حتـى مـن الضيـوف، أن يضعهـا حـذو الجـدار، مستقبلة أطرافهـا إيـاه بانتظام مستقيم، الواحدة إلى جانب الأخرى، كانت كأنها صف من الغنم مشدود إلى ربق واحد".

والابن فريد يعترف لأبيه بالقيادة الأسرية والمجتمعية بمـا تحمله من معاني الرعاية والتربية والحضور المؤثر: "كان أبـي هـو الـذي يصنـع شـاي الليل.. حيث الأسـرة كلها مجتمعة بين يديه، فذلك دليل قيادته.. أحمد أخونا الأكبر نفسـه لا يمكن أن يتطاول على صناعة الشـاي إلا عنـد غيـاب أبـي.. ومـا كان يغيـب إلا لوليمـة عنـد أحـد الأعيان، أو لقضاء ليلة مباركة في الزاوية"[2].

وهـذه المعانـي العميقـة نجدهـا فـي ذلكـم الإهـداء اللطيـف الـذي قدمـه لوالـده بمناسـبة مناقشـة أطروحته، لنيل شهادة الدكتوراه سنة ١٩٩٩م: "إلى الذي ترقب هذا الغرس فرحل قبل إبانه.. وقد عاش معلمًا يغرس القراءة جيـلاً بعـد جيـل.. والـدي حسـن بـن محمـد الأنصاري رحمه الله وغفر له"[3].

٢- الشاهد البوشيخي

العالِمان العامِلان العَلَمَان الأنصاري والبوشيخي لكأنهما وجهـان لعملـة واحـدة، البوشـيخي يعتـرف للأنصـاري بالعبقريـة والنبـوغ، والأنصـاري يعتـرف للبوشـيخي بالفضـل والريـادة والأسـتاذية: "كان اتصالـي بأسـتاذي الفاضـل الدكتـور الشـاهد البوشـيخي الـذي تعلمت منه تفاصيـل "المنهـج"، حيـث كانـت أقواله وأفعالـه ترجمة لهـذا المعنـى، ولـم يكن ذلك مقتصرًا لديـه على البحث العلمي فقط، ولكن كان طابعًا يطبـع كل حياته تقريبًا في سـفره وحضـره.. فتعلمـت منـه في كل ذلـك أن المنهـج ضد الارتجال، وأنه لا يستقيم أمر بغير ترتيب، ولا يقوم بناء نسـق وتركيب، وقد احتككت به في البحث العلمي باعتبـاره مشـرفًا، فـكان لي مرشـدًا ودليل ميـدان، يلتفت

الشاهد البوشيخي

إلـى الصغيـرة والكبيـرة، وينبه علـى الجليلـة والحقيرة.. فـكان مـن فضل هذه الصحبـة المباركة عليّ أن تبينت ما كان مبهمًا من ملامـح المنهـج العلمي، فتجمـع لدي من بنائه قواعد وأركان تمكنت -بحمد الله- بعد وفرتها، من إرجاعها إلى أصولها وسبكها في أنساقها"[4].

فريد الانصاري يكثر من الإحالة على مركزية الدكتور الشـاهد البوشـيخي في بلورة رؤيته الإصلاحية، وتطوير ملكاتـه الاجتهادية.. ويذكره بسـبقه وفضله، ونكتفي هنا بنقلين آخرين:

الأول: "لا بـد مـن الاعتـراف لأهل الفضـل بفضلهم، فقـد كان لأسـتاذي المربـي الدكتـور الشـاهد البوشـيخي حفظـه الله تعالـى وسـلمه، الأثـر الأول فـي إثـارة انتباهـي إلى الأسرار الدعوية للقرآن العظيم، وما ينطوي عليه من كنـوز ومفاتيـح لكثيـر ممـا يختلـف عليه النـاس اليوم من قضايـا تجديـد الديـن، وذلك من خلال مـا تلقيناه عنه من دروس علميـة وتربويـة فـي وقـت كان الالتفـات إلى هذا نادرًا، فله من الله الجزاء الأوفى على ما علَّم وربى"[5].

الثاني: "والله الحليـم الكريـم أسـأل أن يبـارك في عمر الأستاذ -ولقد كان ولا يزال هو "الأستاذ"- ويحفظه ذخرًا للأجيـال، فـإن لـه في صناعة "الإنسـان" عمومًـا، وصناعة "الباحـث" خصوصًـا؛ لمهـارة وأي مهـارة! فانظر أي خرم يصيب الأمة بفقد مثله -حفظه الله- وأي خسارة!"[6].

٣- أبو إسحاق الشاطبي

أكاد أجـزم أن الدكتـور فريـد الأنصـاري، هو أكثـر العلماء المعاصرين تأثرًا بالإمام الشاطبي، بل وأعمق من استوعب نظرية المقاصد عن الإمام الشـاطبي، دل على ذلك قدرته

hiragate.com

العجيبة في عرضها وشرحها وتقريب أفكارها، واجتراح إشكالاتها، وتتبع مفاهيمها وبسط مصطلحاتها.

كيف لا وهو الذي أتقن اللسان، وتمكن من ناصية البيان، وصحِب الفحول، وتخصص في الأصول، ونخل كتب الشاطبي وتراثه بمنهج الدراسة المصطلحية، وما أدراك ما الدراسة المصطلحية؟! يقول الأنصاري: "فكان لا بد -إذن- من إخضاع مجمل التراث الأصولي عند الشاطبي للبحث المصطلحي.. فتم إحصاء المصطلحات الأصولية الواردة بكل من كتاب الاعتصام، ومجموع فتاواه التي جمعها الدكتور محمد أبو الأجفان، ثم كتاب الإفادات والإنشادات، وكتاب الموافقات".

ولذلك حاول الدكتور الأنصاري الجمع المنهجي في أطروحته بين الدراسة المصطلحية والرؤية الإصلاحية لمنهج الإمام الشاطبي في تجديد علم أصول الفقه، يقول الأنصاري: "إن القصد التربوي الإصلاحي كان حاضرًا في كل لمسة تجديدية للشاطبي في المصطلح الأصولي، بل لقد كان كتاب المقاصد كله، نظرية في الإصلاح التربوي، امتدت فروعها إلى سائر الأبواب الأصولية الأخرى"؛ وهذا الجمع المنهجي لا يتأتى إلا لمن استوعب كل الحيثيات والجزئيات المرتبطة بالمشروع الإصلاحي الإحيائي للإمام الشاطبي، ومن بلاغة الإفهام الفهم، والحكم على الشيء فرع عن تصوره.

ويؤكد وارث علم الشاطبي أنه هو صاحب المقاصد، النظرية الأصولية ذات البعد التربوي.. كان مُقّلاً في التأليف، لكنه ألف كتابين أغنيا عن العشرات من المصنفات، وهما كتاب الموافقات، وكتاب الاعتصام. وقد كانت شخصية الشاطبي المصلح المربي، حاضرة بهذا المعنى بصورة قوية في الكتابين، رغم اختلاف موضوعيهما في الظاهر، وإلا فهما متكاملان متوافقان[٧].

٤- بديع الزمان سعيد النورسي

بعد سنوات من الانخراط في سلك الدعوة الإسلامية ومحاولة ترشيد الوعي الإصلاحي، سيكتشف فريد الأنصاري كنزًا ثمينًا ومجدِّدًا عظيمًا، كان له دور كبير في إعادة ترتيب أولوياته الدعوية وتعميق رؤيته الإصلاحية، هذا الاكتشاف دفعه إلى أن يكتب -حول هذه الشخصية- رواية من أنبل وأجمل الروايات[٨] ودراسات ومقالات.

اكتشف فريدُ الأنصاري بديعَ الزمان سعيد النورسي، من خلال العمل الأكاديمي[٩] الذي طُلب منه إنجازه حول "كليات رسائل النور" بمنهج الدراسة المصطلحية. وفي ثنايا هذا العمل، يُبدي فريد هذا الاكتشاف والإعجاب: "بيد أنه لم يكن يخطر بالبال؛ وأنا أشرع في قراءة "كليات رسائل النور" للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، أن هذا التراث الضخم الذي تركه، يكتنز قاموسًا مصطلحيًّا خاصًّا، بل كان الانطباع الأولي أن هذه الألفاظ المستعملة عنده، لا تخرج عن القاموس الصوفي بمعناه التقليدي. بيد أن هذا الانطباع الأولي لم يلبث إلا قليلاً، حتى بدأت أدرك -بعد غوص في بحار الكليات الزاخرة- أن الأمر لا يتعلق بعالم جديد كل الجدة من تراث المصطلح الإسلامي الأصيل. لقد فوجئت بثروة مصطلحية نادرة، وكنز مفهومي ثمين، يشعر الدارس أن وراءه عبقرية ذات حس مصطلحي دقيق".

ثم يعترف فريد بالأثر المحوري لكليات رسائل النور في إبصاره لحقائق القرآن: "..ثم لا بد بعد ذلك من ذكر ما كان لرسائل بديع الزمان سعيد النورسي -رحمه الله- من أثر كبير في تجلية هذا المعنى في قلبي، ذلك أنه -رحمه الله- كان يتعامل مع القرآن بمنهج إبصاري"[١٠]، بل إنه حسم الأمر بأن الداخل إلى رسائل النور، لا يمكن إلا أن يكون مبصرًا، قلت فكيف بالخارج منها؟ يقول رحمه الله: "أن تدخل فضاء رسائل النور، يعني أنك أحد المبصرين"[١١].

ومن شدة تأثر فريد الأنصاري بكليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي، جعلها ضمن مواد برنامج العالِمية في الأصل الثاني المتعلق بالعلوم الشرعية، في "علم التوحيد والتزكية"[١٢].

يقول الدكتور إدريس مقبول في رثاء فريد الانصاري: "..تأدب فريد في أخريات حياته من مشكاة أدب بديع الزمان، تلكم المشكاة التي تربط الإنسان بمعين القرآن وتفصله عن باقي المناهل، لأن كل المناهل غير القرآن، من فلسفات الإنسان تكدر على الإنسان شربه.. رسائل النور كانت المربي لفريد، فساح فيها أيامًا وليالي حتى صارت جزءًا من يقظته ومنامه، فعرف قيمة الإيمان

hiragate.com

واليقين والنفس والحق، لا كما يعرفها الواحد منا فيما تقدمه الدراسات الإسلامية والفكر الإسلامي في كراساته العقدية ومدوناته الكلامية من ممضوغات العلم كما يعبر أبو يعرب المرزوقي.. لقد عرف فريد الله من خلال الموتات التي أشرنا إليها بما عاناه من بلاء المرض الذي ظل يصارعه في صبر، فطريق بديع الزمان طريق الصبر والأدب والخدمة الإيمانية والسعي في مجاهدة النفس بدوام المراقبة. وقد أدى وظيفته التي أرادها له الحق سبحانه، ورحل إلى حيث نرحل جميعًا إن عاجلاً أم آجلاً[١٣].

٥- فتح الله كولن

فريد الأنصاري الباحث عن الحقيقة، لم يتوقف يومًا عن تتبع مشاريع الإصلاح شرقًا وغربًا، والتنقيب عن فرسانها وروادها، وقراءتها والاستلهام من منظريها، حتى اكتشف ذات ليلة إسطنبولية هذا الرجل.. خصوصًا بعد قراءة بعض كُتب الأستاذ فتح الله كولن المترجمة إلى اللغة العربية وقتئذ، من قبيل: "التلال الزمردية: نحو حياة القلب والروح"، و"أضواء قرآنية في سماء الوجدان"، وسلسلة "النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية"، و"روح الجهاد وحقيقته في الإسلام"، وخصوصا كتاب "الموازين أو أضواء على الطريق".

عندما اكتشف الأنصاري فتحَ الله كولن، واطلع على مشاريع الخدمة في مجالات الإصلاح والانبعاث الحضاري، بدأ يبحث عن خصائص هذا الفكر، فوجد أن الرجل يبعث وظائف النبوة من جديد، والمستنبطة من العلامات الواردة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(الجمعة:٢)، والمتمثلة أساسًا في تلاوة الآيات، والتزكية والتعليم.

ثم كانت كتابات فريد الانصاري بعد التعرف على النموذج الإصلاحي للأستاذ فتح الله كولن، تبشر بهذه الرؤية الحضارية لبعث الأمة من جديد من أجل الاستمداد، فكتب مقالات وبحوث، وتوَّجها بالرواية الرائعة الماتعة "عودة الفرسان سيرة محمد فتح الله كولن رائد الفرسان القادمين من وراء الغيب"[١٤]، التي استهلها

بديع الزمان سعيد النورسي

بوصف محمد فتح الله كولن بقوله: "رَجُلُ الأَسْرَار.. ولم يزل فتح الله يرسم ملامح الماضي في لوحة المستقبل، فينفخ فيه فيكون واقعًا بإذن الله! كلما كتب مقالاً أو خطب خطبة؛ تشكلت كلماته صورًا لقوافل الصحابة الكرام، ولجيش محمد الفاتح، يزحفون صفًّا من خلف غبار الغيب، مطرًا يهطل من أفق بلاد الأناضول على كل العالم"، ثم يصفه في آخر الرواية: "البكَّاءُ الوحيد في هذا الزمان هو محمد فتح الله كولن.. لم يكن بكاؤه عويل عجز، ولا ندب يأس، ولكنه كان لغة أخرى.. لغة تقدح النور في الصخر المطل على العالم من علا مشارف الجبال الشاهقة.. فإذا الطيور تقذف من حناجرها بروق البشائر الكاشفة لزمن الظلام".

أبحر الأنصاري في مشاريع الخدمة طيلة مُكثه في تركيا قارئًا وباحثًا متفقدًا ومتعبدًا، فاكتشف معدنًا نفيسًا و"رجالاً ولا كأي رجال"[١٥]، إنهم تلاميذ الأستاذ محمد فتح الله كولن، والذين بهروه بدماثة خلُقهم وصِفْريَّتهم[١٦]، فأبت أنامله الذهبية ومخياله الواسع، إلا أن يكتب عنهم ويشهد لهم بما تفرق في غيرهم من المناقب والخصال، يقول الشيخ فريد الباحث عن الحقيقة: "لولا أني رأيتُهم لقلت إنه مجرد وهم أو هُراء أو خيال.. ظلال نورية لجيل الصحابة الكرام، جمعوا بين خصلتين عظيمتين من خصالهم الكبيرة؛ الهجرة والنصرة. فلم يكن منهم مهاجرون وأنصار، بل كانوا مهاجرين أنصارًا، وللصحابة فضلهم الذي لا يبارى.. أتريد أن تكون منهم؟ "نعم"، تلك كلمة سهلة النطق، لكنها تجربة مريرة.. ومَن قال

hiragate.com

فتح الله كولن

إن النار ليست لها خاصية الإحراق، فليَمُدَّ إليها يدَه.. فهل أنت مستعد لأن تحترق حتى يصير جسمك رمادًا؟ فتذروه الرياح في كل قارات العالم، ذرّاتٍ متناثرة هنا وهناك، ما سقطت منها واحدة على تربة قاحلة إلا جعلَتها تخضرّ، وتُنْبِتُ من كل زوج بهيج. هؤلاء هم عماليق العصر، ونماذج الإنسان الحق الذي ينتظره العالم منذ زمان بعيد.. فهل آن الأوان لتستعيد الأرضُ أمانها الذي أودعه فيها سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام؟!".

إن الكتابة عن الرموز، تعني الانخراط في السلك وإعلان الانتماء، والأنصاري حين أصر على أن يختم رحلته الحياتية بتوثيق سيرة "إمام المرحلة"، فإنما شاء أن يعلن انتسابه الروحي والأدبي إلى كتائب هذا الإمام العارف بالله، والعمل على ما يخدم عباد الله، ويكفل لهم سعادة الدارين[١٧].

قلت: كان فريد قد جرب ويجرب نماذج للإصلاح والانبعاث من جديد، لكن سرعان ما يخيب ظنه بسب تكسر أحلامه على صخرة الواقع العنيد، حتى اطلع على نموذج "الخدمة"، حيث وجد التطابق والتناغم بين الجانب النظري العلمي والجانب التطبيقي العملي، ووجد الجواب الكافي عن السؤال الإشكالي في العلاقة بين الفكر والفعل، بين قيم الدين ومسالك التدين في مشاريع الإصلاح المعاصرة.

خلاصة القول، إن فهم واستيعاب الشخصية الاستثنائية للعلامة فريد الأنصاري، تستوجب التعمق في المؤثرات والعوامل التي أسهمت في بناء هاته الشخصية الفريدة وبلورة رؤاها. ولا شك أن كثيرًا من الباحثين، في حاجة إلى مثل هذه الإضاءات، علَّها تفيدهم وتدفعهم إلى مزيد من التنقيب والاستلهام من سيرة هذا الرجل. ■

(*) كاتب وباحث مغربي.

الهوامش

(١) أبجديات البحث في العلوم الشرعية محاولة في التأصيل المنهجي، لفريد الانصاري، ص:٧.

(٢) كشف المحجوب (رواية)، لفريد الأنصاري، ص:٣٥.

(٣) المصطلح الأصولي عند الشاطبي، لفريد الأنصاري، ص:١.

(٤) أبجديات البحث في العلوم الشرعية محاولة في التأصيل المنهجي، لفريد الانصاري، ص:٧-٨.

(٥) بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار لآيات الطريق، لفريد الأنصاري، ص:٢٠.

(٦) المصطلح الأصولي عند الشاطبي، لفريد الأنصاري، ص:٤١.

(٧) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، لفريد الانصاري، ص:١٢٤.

(٨) آخر الفرسان، مكابدات بديع الزمان سعيد النورسي، لفريد الأنصاري.

(٩) مفاتح النور، نحو معجم شامل للمصطلحات المفتاحية لكليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي.

(١٠) بلاغ الرسالة القرآنية من أجل ابصار لآيات الطريق، فريد الأنصاري، ص:٢٠.

(١١) الكونية الأخلاقية بين علوم القرآن وعلوم الإنسان: دراسة في نظرية الأخلاق عند الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، لفريد الأنصاري، بحث علمي ضمن كتاب، المؤتمر العالمي السادس لبديع الزمان سعيد النورسي العولمة والأخلاق في ضوء رسائل النور تركيا ٢٠٠٢، ص:٢٠١ وما بعدها.

(١٢) مفهوم العالِمية من الكتاب إلى الربانية، لفريد الأنصاري، ص:١٠٦.

(١٣) في وداع زهرة النور: فريد الأنصاري رحمه الله، الدكتور إدريس مقبول، موقع الفطرية www.alfetria.com

(١٤) عودة الفرسان سيرة محمد فتح الله كولن رائد الفرسان القادمين من وراء الغيب، لفريد الأنصاري، كانت الطبعة الأولى بعد وفاته سنة ٢٠١٠.

(١٥) رجال ولا كأي رجال، لفريد الأنصاري، كتاب نشرته مجلة حراء ٢٠١٣ بمناسبة الذكرى الرابعة لوفاة فريد الأنصاري.

(١٦) مقام الصفرية: أو تصفير الذات هو مفهوم مركزي عند كولن، ويعني دفن "الأنانية" في تراب التواضع والتقصير.

(١٧) هندسة الحضارة تجليات العمران في فكر فتح الله كولن، لسليمان عشراتي، ص:٢٤٧.

hiragate.com

مجدي إبراهيم*

الحشرات العازفة

تلعب الحشرات دورًا هامًّا في حياة الإنسان؛ لأنها تعتبر العامل الرئيسي في تلقيح الأزهار، وبالتالي تكوين الثمار والبذور اللازمة لغذاء الحيوان والإنسان، وحتى تؤمِّن هذا، لا بد من استمرار تكاثرها.. ولذا نجد أن الحشرات تسعى للاتصال بأفراد نوعها، فهي لا تعيش بصمت كما يبدو لنا، بل تستعمل عدة لغات، فمنها من لا يجيد إلا لغة واحدة، ومن يجيد اثنتين، وهناك المبدع في ذلك.

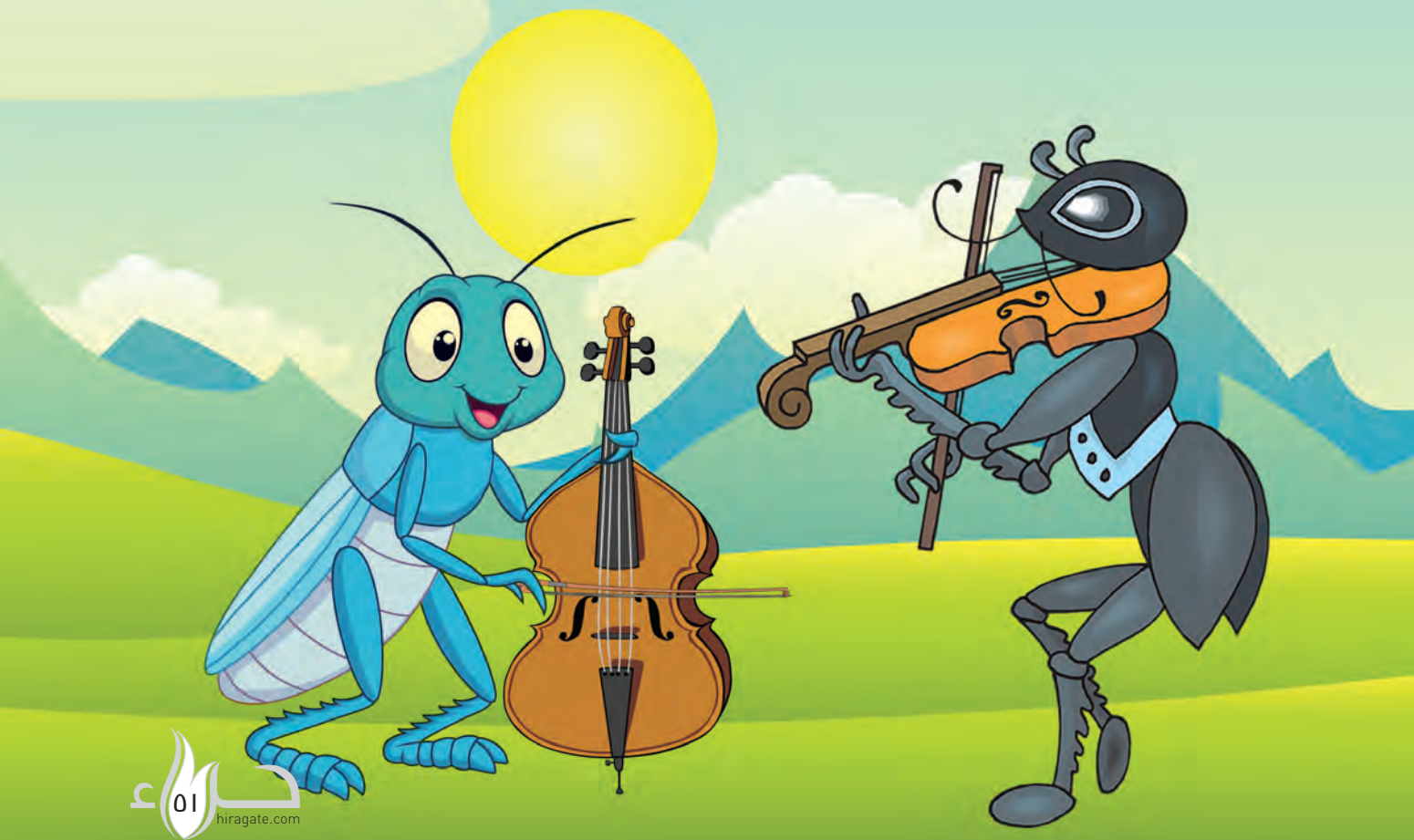

صرصار الليل

إشارات صوتية

لعل الصوت من أكثر وسائل التفاهم انتشارًا في عالم الحيوان، ناهيك عن أنه من أهم الوسائل للتخاطب في عالم الإنسان.. وتصدر معظم الحيوانات أصواتًا، فللحشرة أعضاء تلتقط الذبذبات الصوتية، ويمكننا تسمية هذه الأعضاء آذانًا، ولكنها تختلف عن آذاننا اختلافًا كبيرًا؛ فهي تعمل في الحدود التي تحتاج إليها الحشرة، فأذن الإنسان تسجّل نحو ٣٠,٠٠٠ من الذبذبات في الثانية، بينما تسجّل أذن الحشرة أصواتًا أقل ذبذبة من الصعب أن نسمعها.

من بين وسائل الاتصال والتفاهم بين الحشرات، نجد أن هناك وسائل صوتية، حيث تبعث بعض الأنواع من هذه الحشرات إشارات صوتية، لها معنى من دون شك عند أفراد نوعها، وهي تحافظ على الإيقاع والوزن بشكل دقيق، وتعتبر هذه الإشارات نوعًا من الموسيقى. وهناك من يغني ويسافر في الليل دون ملل ليجذب قرينته وصاحبته.

فليس الهدف من الموسيقى هو مجرد الغناء وإبراز الأصوات فحسب، بل ثمة أغراض؛ فبجانب التعبير عن الغزل، فإنها تعبّر بالموسيقى عن غضبها

الجراد

وإحساسها بالخطر، كما أنها تتغذى أحيانًا على نغمات الموسيقى. فالحشرات تصدر صريرها الموسيقي تحت ظروف عاطفية عديدة، مثلها مثل الطيور التي تستخدم أصواتها في كثير من الأغراض الأخرى، بجانب الغناء المقصود منه جذب العشاق. وكثير من الحشرات الموسيقية تصدر موسيقاها الغاضبة لتعبّر عن حالة الكرب أو الضيق أو الخوف، فتظل تضرب السيقان الفارغة الخاوية للأشجار أو أي أشياء مجاورة، وتستخدم بعض الحشرات موسيقاها وغناءها كصيحات تحذير.

موسيقى الحشرات

لحّنت بعض أغنيات الحشرات الموسيقية بنفس النظام الذي تلحن به أي أغنية لمطرب أو مطربة من البشر.. في

نحلة العسل

موسيقى الحشرات تكون النوتة الموسيقية المعبرة عن النغمات مستقرة على درجة واحدة للصوت، وبذلك تكون ناقصة عملية تنغيم الصوت نفسه، كما يحدث في أغنيات الإنسان والطيور.

ها هو الصرصار الحفّار، يطلق ما يشبه زغرودة لا نهاية لها، وقد اتضح أن كل جنس بل وكل نوع من الحشرات الموسيقية له ما يميزه من أغنياته، حتى إنه يمكن تمييز هذه الأجناس والأنواع عن طريق النغمات لأغنياتها، والصوت الناتج عن حشرة ما، يمكن أن يكون ذا نغمة فيها تطويل، أو قد يكون من سلسلة نغمات قصيرة ذات أطوال متغيرة، وبينها فترات راحة متغيرة الأطوال أيضًا.. وكل هذه المتغيرات في النغمات وتلك الاختلافات في المقامات الموسيقية، تعطي مدى واسعًا لصوت الحشرة المغنية.

hiragate.com

وفي العديد من الحشرات، نجد آلة الكمان بقوسها وأوتارها في أماكن معينة من أجسامها. ولكي نعرف كيف تعزف هذه الحشرات على آلة الكمان، ينبغي أن نشير إلى الاختلافات الموجودة في موقع قوس الكمان وأوتاره، أو كليهما معًا على جسم الحشرة نفسها، ومن أمثلة هذه الحشرات الجرادة والصرصار، وحشرة "جرايلس" و"ميرميكا رويدا". والكمان في معظم الحشرات الموسيقية، يتخصص لإنتاج نغمات ذات درجة واحدة من مقام الصوت، لكن أحد العلماء أثبت أن في بعض الخنافس الموسيقية أصواتًا تتشابه مع نغمات الكمان. والبيانو معروف عند حشرة السيكادا، التي يطلق عليها اسم حشرة المدّاح أو المنشد، ولها أصوات رنانة وعالية وحادة تميزها عن أي صوت مسموع للحشرات الأخرى.

حشرة السيكادا

أما الناي فصوته ينطلق من بعض الحشرات الموسيقية أثناء طيرانها حين تضرب الهواء بأجنحتها ضربات سريعة، ولكي يصدر الصوت نايًا لا شيء غيره، ينبغي أن تكون تلك الضربات السريعة للأجنحة في صورة ذبذبات، وعلى نسق واحد وبدرجة كافية؛ كما هو الحال في نحلة العسل وأنثى البعوض.وبالنسبة لآلات النفخ، ففي كثير من الحشرات ثنائية الأجنحة يوجد جهاز موسيقى بداخل كل فتحة تنفسية في جسمها، ويتكون هذا الجهاز من عدة ثنيات ورقية الشكل، تتركب كل منها ضد الأخرى بواسطة حلقة رنانة، وعندما تتنفس هذه الحشرات يندفع الهواء داخل الفتحات التنفسية، وتهز الثنيات الغشائية التي بها، فتصدر عنها الموسيقى.

وفي "ذبابة مايو" يوجد عضو للتغريد والزقزقة بداخل كل فتحة تنفسية، وهو عبارة عن ثنية على شكل

البعوض

لسان يبرز في تجويف الفتحة التنفسية وبالذات عند فتحتها الخارجية، فحينما تتنفس الحشرة يهتز اللسان وتحدث الزقزقة. وقد لوحظ أن الزقزقة تزداد في أثناء طيران الحشرة، لأنها تتنفس وهي طائرة قدرًا من الهواء أكثر مما لو كانت على الأرض.

الغناء للذكور فقط

ويبدو أن الغناء من اختصاص الذكور، فالإناث تنجذب لغناء أغنية يترنّم بها الذكَر وتستجيب له. وعندما تتقارب ذبذبات نوعين من الحشرات، فإنه لكي يضمن الذكر والأنثى عدم الالتباس بين ذبذبات الأغنيتين، فإن مثل هذين النوعين يحاولان عدم التواجد في المكان نفسه، بل يتباعدان عن بعضهما البعض.. ومثلما تفهم الأنثى لغة الذكور فإن الذكور التي من نوع واحد تفهم الآخر، ونتيجة ذلك يتجمع عدد كبير من الذكور في منطقة واحدة، حيث تقوم معًا بعزف الأغنية على هيئة كورس، وبهذا يرتفع الصوت فيجذب عددًا كبيرًا من الإناث.. ومن الغريب أن الذكور تكرر النغمات نفسها دائمًا، إذ لا توجد نغمة واحدة معينة لكل ذكر، بل يعزف معظم الذكور ثلاثة نغمات مختلفة فقط، يدل كل منها على حالة معينة.. إلى جانب الأغنية العادية التي يجذب الذكر بها

ذباب مايو

hiragate.com

نطاط الأوراق

الأنثى، ثمة أغنيتان أخريات؛ الأولى عندما يتقابل ذكران معًا، حيث يغنيان معًا أغنية التنافس على الأنثى التي لا تميل للانجذاب لمثل هذه الأغنية. ونظام الغناء هذا يتغير باختلاف المسافة ما بين العاشقين.. وهناك وسائل أخرى مختصة بالأصوات الخفيفة، كوجود شعيرتين تغطيها الأهداب، وظيفتهما التقاط اهتزازات التربة، ولو تساءلنا: كيف يغني صرصار الليل هذا ويطرب إناثه؟ فإننا سنلاحظ أن غناءه ناتج عن احتكاك أغماد أجنحته، فعلى السطح الداخلة لغمده اليمني يوجد عصب مسنن بأسنان دقيقة، هذه الأسنان تحتك بالمؤخرة العلوية لغمده الأيسر، ويتغير هذا الغناء من صرصار لآخر عن طريق تغيير نظام الإيقاع وترددات الأصوات.. وإذا حدث أن تنافس ذكران على جذب أنثى واحدة، فإن هذا التنافس يمتد إلى قتال حقيقي ضار، وقديمًا استغل الصينيون هذه الظاهرة لتنظيم حفلات المصارعة.. وحين تسمع الأنثى أغنية الذكر، فإنها تطير إلى حيث يتم التزاوج ولا تهوي إلى أي نوع سواه، أي أن الأنثى فهمت الغرض في موضع التنافس بين ذكرين. وقد لا تستجيب الأنثى لأغنية الذكر في جميع الأحيان، حتى لو ظل يشنّف آذانها بالعزف المتواصل لساعات طويلة.

حشرة كاتي ديد

لغة متعددة المعاني

ولا تهتم الأنثى بأغنية الذكر إلا في أوقات معينة، وذلك عندما ينضج الذي تحمله في مبيضها ويصبح مهيأ للتلقيح بالذكر. فالهدف هنا هو إنجاب الذرية لحفظ النوع؛ ففي كثير من أنواع حشرة "النطّاط" حين تشعر الأنثى بالرغبة في تلقيح بيضها، نجدها ترد على أغنية الذكر بعزف أغنية من النوع نفسه، ولكن بصوت ضعيف عن صوت أغنية الذكر.. ولكن هذه الأغنية تفعل في الذكر عند سماعه فعل السحر؛ حيث تجعله يشعر بنشاط فجائي عجيب، فيغني أغنيته بقوة وعاطفة جياشة، ويسرع بالطيران في اتجاه مصدر صوت أغنية الأنثى، وفي هذه الأثناء يتبادلان الغناء حتى يلتقيا، بل تطير هي أيضًا في اتجاهه اختصارًا للوقت.

وهكذا نرى أن هذه الأغنية عند تلك الحشرات أصبحت لغة متعددة المعاني، من الممكن فهمها وإدراكها والاستجابة لها، ليس بين أفراد جنس النوع الواحد، بل بين أفراد الأجناس المختلفة، وربما تكون حشرة صراصير الحقل أكثر الحشرات نغمة. ميز العلماء منها أكثر من ألفي نوع، وهذه الأنواع ليست مغنيات، وإنما عازفات على آلة الكمان؛ فعلي أحد أجنحتها غشاء تغطيه نتوءات، وعلى الجناح الآخر أسنان حادة كالمبرد، ويستطيع بحبك جناح على الآخر أن يحدث نغمات مختلفة تمامًا كما يفعل عازف الكمان عندما يحك قوسه على الأوتار.. ويحدث صرصار الحقل نغمة عالية، وثانية منخفضة، وثالثة مكتومة.. ويمكن سماعه في ليلة ساكنة على بُعد ميل (١,٦ كيلومتر) تقريبًا، وتصغي الأنثى لنغماته بآذان على أرجلها.

وهناك أخيرًا حشرة موسيقية أخرى تسمى "كاتي ديد"، تنتمي إلى أسرة النطاط ولكنها لا تشبهه، وفي الليالي الحارة يضيف مقطعًا إلى أغنيته القصيرة.. وكلما انخفضت درجة الحرارة وجدناه يعزف مقطعًا من الأغنية واحدًا بعد الآخر، ويسكت عن نغمته الأخيرة عندما تنخفض درجة الحرارة إلى درجة معينة. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

hiragate.com

قصة

أميرة الوصيف*

ما تبقّى من أسناني

في أورشليم دارَ طبق الحلوى من زقاق إلى زقاق، ومن شارع إلى شارع، ومن ناصية إلى ناصية.. حتى استقر كعادته في أحضانِ شجرةِ التين. ودَفنت أنا وأصدقائي أبصارنا فيه حتى لامستْ اللذة أعماقنا، وصرنا أشد التصاقًا من البارحة، ومن اليوم الذي سبق كل بارحة قضيناها في جوار طبق الحلوى الطائر.

لو تعلمون كيف كان سُكَّره ينغمس في الروح! فقط عند رؤيته، يستوي جالسًا كجني مُزَركش الألوان مُحبب إلى العين رؤيته.. كانت حلواه تمسك بتلابيب دواخلنا من دون أن نأكله.. آه لو تعلمون كم مرة أقسمتُ لأمي، ولأم حنّا، ولأم أبراهام، أن الطبق يدور ولم تصدقنا أمهاتنا.

قالت أمي أنت مجنون ورب الكعبة، وطاردت خالتي مريم حنّا بهِراوة بلاستيكية، واكتفت أم أبراهام بقرص أذنيه في عتب ولوم.

مساء الخميس كان القمر يتراقص فوق بيوتنا، وبين الرقصة والأخرى كان يقذف نوافذنا بخيوطِ ضوء فضّية مبهرة.. هرعتُ إلى نافذة غرفتي لأجد بصمات أصابع القمر على الزجاج، تلك اللعبة التي نتبادلها مع القمر كانت عادتنا، وضمير "نا" هنا تعود إليّ بصحبة حنّا وأبراهام؛ تعاهد ثلاثتنا على خَربشة الزجاج بأظافرنا كلما صفر مصباح قمرنا الساهر، مُعلنًا بدء الشوط الأول من لعبة "الغمّيضة" مع الأعلى.. كنا نظن أن أظافر الصغار الشقية التي تخربش الزجاج حتمًا سَتُقَشره وستقبض راحات أيدينا على النور، ثم سنصافح قمرنا هكذا يدًا بيَد، وإصبعًا بإصبع.. فهل كنا ثلاثة مجانين؟!

كان هذا وصفًا أزليًّا مُرًّا كلما مشينا التصق بنا.

في صباح الجمعة دقَّت أمي عظامي بالعصا حين شَهقت مثل المجاذيب، وتَلَعثم لساني، وقلت لها وأنا لا أمل من تكرار ما ألفظه في لهفة مجنونة: طبق، طبق حلوى، يَطير يَطير!

لكزتني في ذراعي النحيل، وصرخت في وجهي بعبارات كثيرة وغير مُنَظمة.. لم تحتفظ أذناي سوى بتلك الكلمات: مجنون.. أخبل.. أسوأ ولد في العالم.

عندما نعتتني أمي بأسوأ ولد في العالم، لم أكن أعرف هل كان عليّ أن أغضب، أم أن أذرف الدمعات ماسحًا وجهي المُبلل بعباءتها كي تضعف أو تصدقني، عندها وقبل أن أعود إليها وأُمَرّن لساني على تأدية القَسَم، نما إلى أذني عويل حنّا.. لم يمتص سمعي شيئًا، ولكن كل ما دخل حواسي كان بكاء هستيريًّا آخره عبارة "لن أخرج"، والتي كُرّرت عدة مرات في انفعال طفولي غاضب.

في ظهيرة الجمعة هرولت إلى نافذة غرفتي، وأخذت أترقب العالم من خلف الزجاج.. حينها كانت الشمس تغمز بعينيها البرتقاليتين وتضحك، تضحك حتى كادت حماسة مزاجها الحار أن تشعل كل شيء، أو هكذا بدا لي؛ لأنني كنت أسير غضبي، وجدَّتي تقول "إن الولد الغاضب تلسعه حرارة أفعاله".

رميت ببصري إلى حيث بيت حنّا.. وجدته قابعًا منكسرًا أمام نافذته تمامًا مثلي، ينظر إليّ بعينين حمراوين كدّرتهما دموع الصباح.. لم ننبس ببنت شفة، لكن عيوننا تجاذبت أطراف الحديث.. ثم أخذت تروح وتجيء باتجاه بيت أبراهام الملتصق ببيوتنا.. حدّقنا كلانا في نافذته إلا أنه لم يكن موجودًا؛ فصديقنا معاقَب من الأمس.. لن نراه اليوم.. وغدًا "سبت النور"، وسينشغل في طقوسه الدينية مع أسرته.. وبعدها سيعاقَب تمامًا كما قالت له أمه.. وربما ستصرخ في وجهه كما فعلت أم حنّا، وربما تلكزه في كوعه، وتنعته بالأخبَل كما فعلت أمي أنا.. مَن يدري!

في ليلة الخميس، كنت أُمَرر كعادتي كل ليلة الرمالَ البيضاء من بين أصابع قدمي، وكان حنّا يضع لي خُنفسة سوداء في حفنة الرمال التي أنوي تمريرها، وأنا أراه بطرف عيني وهو يضعها، وأرسم ابتسامتي الصفراء وكأني لا أعلم، ويَلمحني أبراهام فيخطفها من حنّا دون أن يَشعر ليضعها في حفنة الرمال خاصته.. وهكذا كنا نلعب ونضحك من الأعماق حتى تؤلمنا معدتنا من شدة هذا الضحك ونُحدِث لتوّها ضجة طفولية في الشارع، توحي ببَحّة كلاب مولودة ومذعورة.

قبيل أن تسقط عباءة الليل على رؤوسنا، لَمحنا طبقًا يدور.. لم نصدق أعيننا! دعكنا جفوننا في عجلة وانفعال.. كان الطبق يدور من زقاق إلى زقاق، ومن شارع إلى شارع.. أخذ يَهبط ويرتفع في مهارةِ رواد الفضاء.. كان بمثابة حلم أو أسطورة، إلا أنه في نهاية الطيران استقر في قلب شجرة التين القديمة.

اهتزت أكتافنا وارتجفنا رغم اعتدال حرارة الجو.. اقترب أبراهام من شجرة التين، وحاول هزّها حتى يسقط طبق الحلوى، ولكن دون جدوى.. اقتربت أنا وحنّا وهززنا الشجرة مرة أخرى دون سقوط شيء.. اتفقنا على العودة إلى الديار وإخبار أهالينا بأمر الطبق الطائر.. ولكن لم يعبأ بنا أحد كالعادة.

بعد انقضاء سَبت النور، جريتُ نحو بيت أبراهام وناديته بخفاء، فأتاني وهو خائف من أن تلمحه أمه، لأنه لا يزال معاقبًا.. طلبت منه أن يذهب معي إلى

hiragate.com

شجرة التين القديمة حيث طبق الحلوى الطائر، أجابتني دقات قلبه بالرغبة واللهفة، وأجابني بريق عينيه بالحماسة، إلا أنه بعد عشر دقائق كانت خالتي أم أبراهام واقفة أمامنا، وطلبت مني العودة إلى أمي.. قرصت أبراهام في أذنه ثانية؛ فاحمرّ وجهه وبكى، ثم صفَقت الباب خلفها بشدة.

أخذتني خطواتي إلى حيث طبق الحلوى.. وجدت حنّا واقفًا بذهول أمام شجرة التين؛ مُحرّكًا يديه كمَن هو تحت تأثير التنويم المغناطيسي.. وأخذ يتأرجح ذات اليمين وذات الشمال.. كان يحدّق في الطبق.. أخذ الطبق يدور أسفل الشجرة وفوقها على الأغصان وفوق الثمار.. هناك على الأرصفة كان يتأرجح بخفة قوة خارقة، وكانت أبداننا وأرواحنا تتأرجح معه في انسيابية مُحَببة إلينا.

تبادرت إلى ذهننا عين الفكرة التي قلناها لبعضنا بالأعين والنظرات، مفادها أن يحمل أحدنا الآخر ليحصل هذا الآخر على طبق الحلوى المستقر في قلب الشجرة ونمسك به، ثم نثبت لأورشليم وأهلها بأننا لسنا مجانين.. ومن ثم سأثبت أنا شخصيًا لأمي بأني لست أسوأ ولد في العالم.

حمَلَني حنّا وصعدت فوق كتفيه، فشعرت بإبَر وأشواك أسفل قدمي؛ قلتُ له أنْ يُكثر من تناول الطعام حتى يسمن قليلاً، تأفف وصرخ من الأسفل قائلاً: لا وقت للمسْخَرة.

رفعت رأسي فرأيت الطبق الطائر.. وحينما حاولت الإمساك به صرخ حنّا وسقط على الأرض، فوجدت نفسي مطروحًا على الأرض أنا أيضًا.. التَفّ الجيران حولنا بسبب الصرخات التي تجلجلت في أرجاء الشارع.. حملنا الناس إلى بيوتنا، وعوقب حنّا بعدم الخروج أبدًا، وعوقبت أنا بالخصام والصراخ في وجهي.. عندها انتشرت الأقاويل والإشاعات في البلدة، التي وصمتْ أبراهام وحنّا كذبًا بأنهما يدعيان رؤية أشياء لا أصل لها؛ لذا عاقبهما الله بأن كُسرت قدَم حنّا، وأَحرقت إحدى شمعات السبت يد أبراهام

بدأتْ اللعبة بسِن واحدة وانتهت بالكثير والكثير من أسناني.. عدت إلى شارعنا وأنا أقبض على طبق الحلوى الطائر.. التفّ الناس حولي ليشهدوا براءة أبراهام وحنّا، ومن ثم أعلن حُبّي لهما بما تَبقّى من أسناني.

حراء

اليمنى.. وكنت أنا في منأى عن هذة الأقاويل والتهم لسبب واحد وهو أنني لم أتأذّ بشكل ملموس كصديقَيّ الحبيبين.

شعرت كأن خنجرًا غُرس في قلبي، وأني مريض الروح.. لاحظتْ أمي نحولي وشحوبي وعزوفي عن الطعام، وكلما نطقتُ حرفًا عن حنّا وأبراهام، أو عن شجرة التين القديمة وطبقها الطائر، عنّفتني ونعتَتْني بالخبَل، ثم حذّرتني من أن يقول الناس عنيّ كما يقولون عن صديقيّ، بل أخافتْني من أن يغضب الله عليّ، وتنكسر ساقي أو يُقطَع لساني الذي يتفوه بالكذبات الكبيرة.

ذات يوم استيقظتُ على أصوات وضجيج لأهل البلدة، يشتمون صديقيّ ويصفونهم بالكاذبين.. أحسست نارًا بداخلي، فورًا قررت أن أفعل الآتي؛ للمرة الثانية أخذتني خطواتي إلى شجرة التين، حاولت أن أتسلقها وحدي، سقطت عشرات المرات، وجُرِحَت ساقي اليمنى، وأهدتني الأرض خدشًا في ذراعي أخذ يقطر دمًا، إلا أنني لم أيأس، تسلقت شجرة التين، واقتربت كثيرًا من طبق الحلوى، قبضت عليه وأمسكته بين أصابعي، ونظرت إليه فوجدت حلواه عجيبة مدهشة تبدو كأزرار ذهبية وجواهر ولآلئ، إلا إنها حلوى! وعندما حاولت أخذ الطبق معي إلى المنزل، اختفتْ الحلوى كلها مرة واحدة!

ويتحول الطبق بقدرة قادر طبقًا خاويًا، وكلما وضعته في قلب الشجرة عادت إليه حلواه كما كانت بكامل غرابتها، أما إذا حاولت اصطحابه برفقتي، اختفت الحلوى و كأنها لم تكن!

hiragate.com

استمر الحال هكذا ساعات طويلة.. لم أكن أعرف ماذا أفعل؟ في تلك الحالة لن يُصدّقني الناس ولن أنجح في إثبات براءة رفيقيّ، إذا لم أرهم الطبق.

شعرت بضيق في صدري، وحيرة في عقلي.. تألمت وبَكيت.. وأصبح لنَحيبي صوت كصوت أمي عند ولادتها لأخي الأصغر.. وصلتُ لأقصى درجات اليأس.. وعندما رفعت رأسي إلى الطبق، وجدت فيه ورقة صغيرة، بها رسالة تقول:

قبل أن تأكلني.. أعطني أسنانك!

فتحت عيني في دهشة بالغة، لم أفهم ماذا تعني تلك السطور؟

وكيف يعطي أحدهم أسنانه لطبَق، حتى وإن كان طبقًا طائرًا؟!

بعد أن قرأت الرسالة وطويتها، ظهرت الحلوى وظهر معها ورقة صغيرة تقول:

عندما تأكلني، تسقط أسنانك، وعندما تسقط أسنانك، تراني!

فورًا سارعت إلى قضم أول قطعة من الحلوى.. عندها سقطت سني الأولى في الطبق من تلقاء نفسها، شعرت بالهلع والدهشة، إذ لم أشعر بأي ألم، لكنها سقطت ولا أعلم متى ستعود.

عندئذ فهمت اللعبة، تلك الشبيهة بغمّيضة القمر، إلا أنها لعبة جدية؛ فإذا أردت أن تظهر لي الحلوى، ينبغي أن أخسر عددًا من أسناني، لأنه بعدد الأسنان المتساقطة ستكون عدد الحلوى الظاهرة في الطبق، والتي لن تصبح مخفية لأي أحد.. وحينها فقط سأستطيع حمل الطبق الطائر المملوء بالحلوى العجائبية والعودة به إلى أورشليم، كي يراه الناس ويتبرأ صديقيّ الحميمين.

وبدأت اللعبة بسِن واحدة وانتهت بالكثير والكثير من أسناني.. عدت إلى شارعنا وأنا أقبض على طبق الحلوى الطائر.. التفّ الناس حولي ليشهدوا براءة أبراهام وحنّا، ومن ثم أعلن حُبّي لهما بما تَبقّى من أسناني. ■

(*) كاتبة وأديبة مصرية.

قدر الرحيل

ويـوْمًا كنتَ تـقْفزُ فـي مُهِمّهْ
وفـارسُكَ السّـعيدُ بألفِ هِمّهْ
ولـكنّا انْـكَـسَـرنـا وانْـدَحَـرْنـا
وهَـذِي صُـورةٌ تَـحْـكي المُـلِمّهْ
رحَلْنا فارتحَـلْتَ بغَـيْرِ سَـرْجٍ
وحُـزنُكَ ذاكَ يعْدِلُ حُزْنَ أمـهْ

***

عز الدين عناية*

لماذا عالم اليوم أكثر تديّنا؟

يحوز الدارس الاجتماعي الأمريكي "روداي ستارك"[1] مكانة مرموقة في أوساط المهتمّين بعلم الاجتماع الديني في الحقبة المعاصرة، بموجب ما أسهم به في تطوير الطروحات السوسيولوجية الجديدة بشأن متابعة الظواهر الدينية، ضمن مجموعة علماء الاجتماع الذين ينادون برفع الحواجز عن كافة أشكال الإيمان ضمن ما يُعرف بـ"تحرير السوق الدينية". فضلاً عن انشغال هذا التوجه بانتقاد سائر أصناف الاستئثار، والمونوبولات (الاحتكارات)، التي تقف حائلاً دون الانتشار الحر للاعتقادات الدينية في العالم.

يتلخّص كتاب ستارك "انتصار الإيمان" الصادر بالإيطالية في السعي للإجابة عن سؤال: لماذا عالم اليوم أكثر تديّنا بخلاف ما ساد سلفًا؟ وهو ما يسير على نقيض ما يروج أحيانًا بأن عالمنا هو عالم هجران العقائد والأديان. فمن خلال بحثه يخلص "روداي ستارك" إلى أن عالم اليوم يشهد مدًّا إيمانيًّا ليس له نظير، بما يدحض الأطروحات التي سادت منذ ستينيات القرن الماضي عن اكتساح العلْمنة واللاّتدين وهيمنة التفسّخ الديني على المجتمعات، على اعتبار أن التملّص من الدين هو ما يطبع سير العالم.

فعلى مدى أجيال ساد الاعتقاد -وأحيانًا الاحتفاء- باكتساح العلمانية العالم في أوساط المؤرخين والدارسين الغربيين، غير أن الكثير من الباحثين في الوقت الراهن،

تنبّهوا إلى تعذر تواصل مساندة تلك الأطروحة. والإشكال المطروح: لماذا ساد ذلك الزعم وما الحجج التي استند إليها؟ يشكك "ستارك" في المرجعية التي استندت لها العلْمنة قائلاً: "إن عديد الإحصائيات التي تحدّثت عن انحدار التديّن كانت خاطئة، بسبب أن مفهوم الدين كان محصورًا بحدود الأديان الممأسَسَة، أي الأديان المنتظِمة وفق منظور عقدي ونظام هيكلي، وجرى التغاضي عن الزخم الروحي الطليق، ولم يُدرَج في الحسبان سوى التمظهر الشكلي المعبّر عن الدين".

يفكّك "ستارك" في كتابه النقدي ادعاءات اللاتديّن التي وجَدت رواجًا طيلة فترة الحداثة، والتي مفادها أن يكون المرء متديّنا يعني ألاّ يكون عقلانيًّا، وهي ادعاءات مغرضة انبنت على مقولة "موت الإله"، التي تعبّر في الواقع -كما يقول المؤلف- عن خدعة أنتجتها الحداثة، نعيش تهاويها اليوم بشكل مدوٍّ.

في القسم الأول من الكتاب حاول "ستارك" تقديم عرْضٍ لحالة الإيمان في العالم، وهو بمثابة التقرير العام، لِيَلي ذلك قسم تناول فيه بالوصف والتحليل والرصد الكمّي، أوضاع كل من أوروبا وأمريكا اللاتينية والبلاد العربية والإسلامية، تلاها حديث عن منطقة ما وراء الصحراء في إفريقيا، ثم اليابان والصين، ثم تطرق إلى أوضاع الدين في بلدان النمور الآسيوية، مرورًا بالانتعاشة الدينية في الهند، ليختم المؤلف كتابه بفصل عن أوضاع الدين في الولايات المتحدة الأمريكية.

نشير في البدء إلى أن "ستارك" قد اعتمد في مؤلف "انتصار الإيمان" على إحصائيات ومعلومات في دعم ما ذهب إليه، مستوحاة من استقصاء غطّى مليون شخص في ١٦٣ دولة (استطلاعات مؤسسة غالوب العالمية ٢٠٠٥)، التي أسفرت نتائجها عن أن أربعة من خمسة أشخاص، عبّروا عن انتمائهم بشكل اعتقادي إلى أديان ممأْسَسَة، وبين الخُمس المتبقي كثير يدينون بمعتقدات غير تابعة لدين معيَّن. وهو ما يعني أن ٨١٪ من سكان المعمورة يصرّحون بانتمائهم إلى أديان قائمة، لها أجهزة تسيير وأنظمة شعائر جلية، وأن ٥٠٪ من أتباع تلك الأديان يقرّون بمشاركتهم في أداء شعائر أديانهم بشكل جماعي مرة على الأقل خلال الأسبوع. ومما يرد في الإحصاءات، صرّح بالتردد على محل عبادة مرة خلال الأسبوع ٥٦٪ في إيرلندا، و٤٨٪ في إيطاليا والدنمارك، و٤٦٪ في الولايات المتحدة، و٣٩٪ في البرتغال، و٣٥٪ في النمسا، و٢٣٪ في بلجيكا. في مقابل ذلك تأتي سيراليون في مقدمة الدول الإسلامية بنسبة ٨٨٪، ثم جيبوتي بنسبة ٨٤٪، تليها بنغلادش وتشاد بنسبة ٨٢٪، ثم الكويت بـ٨١٪، فأندونيسيا بـ٨٠٪. نلاحظ أن بعض الدول الإسلامية والعربية لم ترد في هذا الإحصاء، كما نشير إلى أن بعض النسب لا تكشف عن الواقع الحقيقي للتردد على محلات العبادة. ففي تونس بلغت نسبة التردد ٣٦٪، غير أن الإحصاء لا يورد أن الفترة التي أجري فيها الإحصاء كانت المساجد ودور العبادة عامة، خاضعة لرقابة دقيقة من قِبل السلطة (أي إبان فترة النظام السابق قبل اندلاع الثورة)، وكان جل من يرتادها يُصنَّف بأنه متديّن، ما يعني من وجهة نظر النظام حينها أنه قريب من التوجهات الإسلامية المسيَّسة، ما جعل كثير من الناس يتحاشون التردد على المساجد تجنبًا للشبهات.

وفي مجمل الإحصاءات التي يوردها الكتاب، نتبيّن أن ٧٤٪ من الذين شملهم البحث، قد صرّحوا بأن الدين يلعب دورًا هامًّا في حياتهم اليومية، وفي توجيه خياراتهم المعيشية، وأن ٥٦٪ يعتقدون في تدبير الله شؤون العالم. ضمن هذا الكم العددي للمؤمنين، تبقى ثلاثة بلدان فقط شملها الاستقصاء، وهي الصين وفيتنام وكوريا الجنوبية، صرّح فيها المستجْوَبون -بنسبة ٢٠٪- أنهم لا يعيرون الدين اهتمامًا. لكن ينبغي فهم ذلك بمعنى الانتماء الفعلي إلى دين ممأسس كما أشرنا آنفًا، سيما وأن ٥٪ فقط في فيتنام قد صرحوا بإلحادهم، و٢٠٪ في الصين وكوريا الجنوبية. لكن الملاحظ أن الأعداد بالنسبة إلى الصين تبقى غير دقيقة، نظرًا إلى عدم سماح الدولة لوكالات الاستطلاع الأجنبية بإتمام أعمالها في ما يتعلق بتحديد الانتماءات الدينية، لذلك اعتمد الاستطلاع على وكالة صينية (هوريزون ألتيدي)، اشتغلت على ٧٠٢١ عيّنة خلال العام ٢٠٠٧ استمدت منها نتائجها.

في غمرة انتقاده لتطور العلمانية المزعوم، يأسف

hiragate.com

"ستارك" لغياب إنجاز استطلاعات إبان خمسينيات القرن الماضي، حتى يتيسّر تبيّن البون الشاسع بين أشكال الاعتقاد والممارسات الدينية كما كانت وما أصبحت عليه، ويضرب مثلاً على ذلك بقوله: "خلال الخمسينيات كان في الصين خمسة ملايين من المسيحيين، وفي الوقت الراهن ثمة ما يقارب المئة مليون! وخلال الخمسينيات من الفترة ذاتها، كانت تتردّد على القدّاس في أمريكا اللاتينية حشود قليلة لا تتخطى الـ٢٠٪، واليوم باتت النسبة تتخطى ٥٠٪".

ويتساءل "ستارك" كيف يمكن الوثوق بأبحاث لم تراع الحياد بشأن اللاتدين!؟ فعلى سبيل المثال حُجَج اللاتدين في روسيا الشيوعية هي حجج واهية، ولا يمكن أن تعبّر عن تطور عفوي للاّتدين في بلد يُلزم طلاّبه بالتردد على دروس "الإلحاد العلمي"، على أمل التسريع في خلق الإنسان الشيوعي المتحرر من أوهام الدين. مع ذلك لم تشفع ستون سنة من تلقين الإلحاد لبلوغ ما هو منشود، ولم تسفر النتائج خلال العام ١٩٩٠ سوى عن ٦,٦٪ ممن صرحوا بإلحادهم، وهي نسبة تفوق بقليل نسبة الإلحاد في الولايات المتحدة (٤,٤٪).

والملاحظ أن الأوساط التي تغيب فيها الأديان المؤسَسة، أو تتراجع فيها الحرية الدينية، تشهد فورة دينية موازية لكافة أصناف الماورائيات والغيبيات وأشكال القداسة؛ ففي روسيا يفوق عدد المتطبّبين بخلفياتهم الروحية والدينية، أعداد الأطباء، كما نجد في فرنسا التي تتبنّى علمانية مشطّة ٣٨٪ من الفرنسيين يعتقدون في التنجيم، ونجد في سويسرا ٣٥٪ يعتقدون أن بعضًا ممن يقرأون الطالع بمقدورهم الاطّلاع على الغيب، وفي اليابان يبارك تقريبًا كافة أصحاب السيارات عرباتهم باستقدام راهب من الديانة الشنتوية أثناء اقتناء سيارة جديدة.. وهي جميعًا مظاهر من الميول القداسية تخفي نزوعًا نحو الدين.

يبيّن الباحث "رودناي ستارك" أن إحدى الحجج التي يتحجّج بها أنصار انتشار العلمنة، تتعلّق بنسبة التردد المتدنّية على الكنائس في أوروبا الحديثة. ويُفتَرض أن ذلك يشكّل سندًا للتراجع مقارنة بحِقب

إن عديد الإحصائيات التي تحدّثت عن انحدار التديّن كانت خاطئة؛ بسبب انحصار مفهوم الدين بحدود الأديان المُمأسَسَة، والتغاضي عن الزخم الروحي الطليق، ولم يُدرَج في الحسبان سوى التمظهر الشكلي المعبّر عن الدين.

سالفة، أي ما يعني التخلي عن الاعتقادات الدينية أو رفضها. ليس ذلك الأمر صائبًا -كما تبيّن لستارك- إذ لم يحصل تراجع، لأنه وباختصار ما كان الناس يترددون بكثرة على الكنائس إبان العصور الوسطى أو بشكل حازم. ولدحضِ تلك المقولة يعود "ستارك" إلى جذور القول بتراجع الدين مع رجل الدين الأنغليكاني "توماس وولستون" سنة ١٧١٠، وقد ذهب إلى تواري أثر الدين من أوروبا بحلول القرن العشرين. والحال إبان القرون الوسطى، ما كان الناس في إيطاليا أو غيرها من دول جنوب أوروبا يترددون على الكنائس بكثرة، وإن ذهبوا إلى الكنائس، لم يكن ذهابهم بالانضباط اللازم أو الشغف المرجو. يستخلص ستارك تلك المعطيات من جملة من الأبحاث التاريخية.

وفيما يورده المؤرخ الإنجليزي "كيث توماس" بشأن التدين الشكلي في العصر الوسيط "كانت العامة تتدافع لحجز المقاعد في الكنائس، وتتزاحم بشكل محرج فيما بينها، حيث يتمخّط البعض ويبصقون على أرضية الكنيسة، كما تنشغل النسوة بالتطريز، وتصدر عن البعض تصرفات تنمّ عن سوء خلق"، وهي سلوكات تنبي عن فتور التدين، والأمر لا ينحصر بجنوب أوروبا، بل شاع في ألمانيا أيضًا إبان فترة الإصلاح. ففي لايبسيغ (١٥٧٩-١٥٨٠) أثناء عظة الراعي، كان هناك من يلعب الورق أو يزدري المقدسات، وفي دوقية ناساو الألمانية (١٥٩٤) كان كثير ممن يترددون على الكنيسة مخمورين، ومنهم من يغالبه النعاس أثناء العظة، حتى أن بعضهم يخرّ أرضًا، وفي هامبورغ (١٥٨١) ثمة من يصطحب كلبه داخل الكنيسة.

يقول "ستارك": "إن ما راج من أحكام مغلوطة

hiragate.com

بشأن تدين القرون الوسطى، امتدّ أيضًا إلى مطلع العصور الحديثة، فقد روّجت العلمانية إبان موجة الحداثة -وبشكل مخادع- أن رواد التنوير قد أخرجوا الإنسان من "عصر الظلمات"، وفكّوا أسر البشرية من براثن الاعتقاد الديني". في الواقع كثير من "فلاسفة الأنوار" ما كان لهم دور في الاكتشافات العلمية حينها، وجرى التغاضي عن أن الكثير هم من رجال الدين، أو من المؤمنين التقاة. فقد تناول "إسحاق نيوتن" قضايا اللاهوت أكثر من تناول قضايا الفيزياء، وكرّس "يوهانز كيبلر" جانبًا كبيرًا من اهتماماته، لصياغة تاريخ حول نشأة العالم. وفي دراسة حديثة عن ٥٢ نفرًا من العلماء، إبان حقبة "الثورة العلمية" (١٥٤٣-١٦٨٠)، كشفت أن ٣١ كانوا متدينين (كثير منهم من رجال الدين)، وأن ٢٠ من بينهم متدينون بشكل متوسط، فقط عالم الفلك "إدموند هالي" ما كان متدينًا.

وفي تناول بعض الحالات من تاريخنا الراهن، يقول "ستارك": "عادة ما يصنِّف الدارسون إيزلندا كأعلى بلد علماني أو كأكثر بلد فاتر التدين، ويغفلون عن أن ٣٤٪ من الإيزلنديين يعتقدون في تناسخ الأرواح، وأن ٥٥٪ يؤمنون بوجود "الهولدفولك" (روح خفية)، لذلك غالبًا ما يقع الانحراف بمدّ الطرق السيارة، لأنه يُخشى أن يُلحِق مسارها أذى بالهضاب أو المرتفعات التي تسكنها تلك الروح". كما الإيزلندي الذي يتهيّأ لإقامة بيت، عادةً ما يجنّد "مكتشِفًا للأرواح" قبل الشروع؛ للتثبّت من أن المأوى لا يلحق أذى بـ"الهولدفولك". كما أن نصف الإيزلنديين يتردّدون على المنجّمين.. ويعود خطأ التوصيف الحقيقي لحالة التدين في إيزلندا -وفق رودناي ستارك- إلى اعتماد مفهوم الدين الممأسَس، والتردد على القداس ونسبة التعميد، وهي في الواقع معايير مضلِّلة، في حين ينبغي اعتماد التدين بشكل عام، بعيدًا عن المفهوم الحصري. والأمر ذاته في ما ينطبق على الصين، حيث يصرّح ٧٧٪ من المستجْوَبين أنهم ليسوا متديّنين -بمفهوم الانتماء إلى دين مهيكَل- في حين يتردد تقريبًا كافة هؤلاء المصنَّفين في عداد "غير المتدينين" على المعابد التقليدية، ويؤدون التراتيل ويتبرعون بالزكوات للآلهة لِنيْل بركاتها، أو على أمل تيسير ما يصبون إليه.

في الواقع إن ما ذهب إليه "ستارك" لم يأت من فراغ، فقد تراجع كثير من أنصار التوجه العلماني في الولايات المتحدة، لعلّ أبرزهم عالم الاجتماع "بيتر بيرجر" منذ أن كتب مقالة صدرت في مجلة "كريستيين سانتشوري" سنة ١٩٩٧، أورد فيها: "أرى أن ما خلصتُ إليه رفقة جمع من علماء الاجتماع المهتمّين بالدين، إبان حقبة الستينيات بشأن العلمنة كان خطأً.. قسمٌ كبيرٌ من عالمنا لم يتعلْمن، بل بالأحرى هو بالغ التدين". ليتحول "بيرجر" عقب ذلك باتجاه الحديث عن التعددية الدينية المتعايشة مع الحداثة، كما في كتابه الأخير الصادر خلال العام الفائت "الهياكل المتعددة للحداثة".

وفي تناول "ستارك" للتكتلات الدينية الكبرى، يبرز أن التطور في أعداد المسلمين (مليار ونصف المليار)، وهو مرشح لتجاوز عدد المسيحيين (ملياران ومئتا ألف)، يعتمد بالأساس على الخصوبة العالية في أوساطهم، في وقت يعتمد فيه تمدد المسيحية على نشاط التبشير الحثيث؛ لكن يلوح أن الخصوبة لدى المسلمين بدأت تشهد تراجعًا في بعض البلدان، مثل إيران وسوريا والأردن وتونس. وفي توصيف لتطور التبشير في إفريقيا يقول "ستارك": "التهمت المسيحيةُ بطنَ إفريقيا (إفريقيا ما وراء الصحراء) في ظرف وجيز". وأما ما يورده بشأن أوروبا فيلخّصه في التالي: "إن تبقى بعض الكنائس مهجورة، علامة على الإكليروس الكسول، أوروبا هي قارة "المؤمنين غير المنتمين" بحسب توصيف عالمة الاجتماع الإنجليزية "غراس دايفي للوضع". ■

(*) أستاذ بجامعة روما / إيطاليا.

الهامش

(١) رودناي ستارك، عالم اجتماع أديان من مواليد ١٩٣٤، يدرّس في جامعة بايلور في التكساس. أصدر مجموعة من المؤلفات، منها "نظرية الدين"، "مستقبل الدين"، "مدن الله".

hiragate.com

محمد عيسى*

السكينة

لحمامتَيْن على جبين الغار وصْلُكما
مَرَّ الزمانُ ولم يزل بالقلب رسمُكما
ما بال مَنْ قد أدركتْه عنايةُ الرحمن
هل يشقى؟!
ويظْمأُ مَنْ
بأَمْن الله مُستسقى؟!
ما خلفَ هذا العنكبوت إذن
كفالةُ قادرٍ
وإدانةٌ للأدعياء تُريهمُ
أثَرَ التَّنطُّعِ في التشكُّك والسؤال!

***

هي كافُه الأبديةُ العصماءُ
أوحاها إليكَ:
فكنْ كما تكُنِ المشيئةُ
كانَ..
وانبجستْ حمائمُك التقيةُ في الورَى
تتلو عليهمُ آيةَ الأمن التي
لولاها ما خرج الضياءُ
أَو استقام على الطريقة خارجٌ!

***

لحمامتين بإذن ربهما!
وأسئلةٌ من النيرانِ
كادت أنْ تُفجّع كلَّ حائمةٍ وحامٍ!

***

يا سيدي سقَط السَّراةُ
وأُبْطِلَتْ حِجَجُ السَّراةْ
ضاقتْ بهمْ أرض الفَلاةِ
وأعقبتْهمْ حسرةٌ وَسْطَ الفَلاةْ
تاهَ الفوارسُ في عيونِ حمامتَيْنِ
وأنتَ تقرأ آيتَيْنِ

***

في كل ثانيةٍ يغوصُ سُراقةُ
بين الرمالْ
فبأي آلاء الجليل يكذّبونْ؟!
خانتْهمُ الأفهامُ أمْ هم يجهلونْ؟!
لو كنتَ فظًّا أو غليظًا
ما أقام الناسُ حولكَ
ما أناخُوا عند بابكَ عِيْسَهُمْ
واستنصروكَ،
وما تسابقَ جمعهُمْ
كي يفتدُوكْ.
خانتْهمُ الأفهامُ أم هم يجهلونْ؟!
وبلغتَ دربَكَ للمدينةِ آمنًا
مَنْ يستطيع الآن أن يصل المدينةْ؟!
قد فرَّقتْنا في الطريق نوازعٌ
أوْدتْ بنا نحو الضغينةْ
وتناولَتْنا للمهانة رغبةٌ
لا تعرف الأمنَ/السكينةْ!

***

وبلغْتَ دربكَ حين بلَّغْتَ الأمانةْ
وضمِنْتَ للمتأَهّبين الجانِحين إلى السلامِ
عُرَى السلامةْ.

***

يا سيدي خرج الطغاةُ
وليْتهمْ لم يخرجوا
خاب الطغاةُ وأُحْصِروا
وتخاذل الطغْيانُ

***

إنْ أَخرجوكَ فقد خرجتَ
لكي تعود مؤزَّرًا
يَحْدُوكَ نحو جبالها التَّحْنانُ
أَمَّنْتَهُمْ وحفظتَ هيبةَ مجدهمْ
وغفرتَ ليس يُضيرُكَ الغفرانُ
خرج الطغاةُ
وكلَّ يومٍ يخرجونْ!
يترصَّدونكَ في الكتابِ
ويُزْلِقونكَ في الحضُور وفي الغيابِ
خرج الطغاةُ ويخرجونْ
لكنهمْ لا يقدرونْ
يكفيكَ ربُّكَ شرَّهُمْ
ويَرُدُّ مَنْ يتآمرونْ.

(*) شاعر وعضو اتحاد الكتاب / مصر.

المنحى العام

- حراء مجلة علمية ثقافية أدبية تعنى بقراءة الكون والإنسان والحياة من منظور قرآني حضاري إنساني.
- تهدف إلى بناء الإنسان المتوازن علميًّا وفكريًّا وسلوكيًّا.
- تسعى إلى أن تكون إضافة نوعية مفيدة في الساحة الثقافية شكلًا ومضمونًا.
- مجلة حراء ملتقى للفكر الإيجابي الحضاري البنّاء.
- تنطلق من رؤية حضارية تستمد طاقتها من ثراء الخبرة التاريخية للأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية لمعالجة قضايا الواقع واستشراف آفاق المستقبل.
- تسعى إلى معالجة المعارف الإنسانية من منظور تآلفي بين العقل والقلب، والعلم والإيمان، والفرد والمجتمع، والروح والمادة، والنظري والتطبيقي، والمحلي والعالمي، والأصالة والمعاصرة.
- تحرص على الصحة في المعلومة، والإيجابية في الطرح، والعمق في التحليل، والإثارة في الكتابة، والحرية في التعبير مع احترام المقدسات والخصوصيات، والالتزام بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية المشتركة، والإنصات إلى الآخر، والانفتاح على الحكمة الإنسانية حيثما كانت، والحوار البنّاء الذي يخدم الإنسان ويفيده؛ كما تحرص على الابتعاد عن الإقصاء والاستفزاز والإساءة والعنف والتطرف والسطحية والسلبية فيما تنشر.
- تهدف إلى الجمع بين عمق الفكرة، وجمالية الصياغة، وبساطة العبارة، ووضوح المعنى في أسلوب الكتابة.

معايير النشر

- أن تكون المادة المرسلة جديدة لم يسبق نشرها.
- ألا تتجاوز عدد الكلمات ٢٠٠٠ كلمة. وهيئة التحرير لها الحق في التصرف تلخيصًا واختصارًا.
- المادة المرسلة تخضع لتحكيم لجنة علمية استشارية، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء تعديلات على المادة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة تحتفظ بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وطبقًا للتوقيت الذي تراه مناسبًا.
- للمجلة الحق في أن تكتفي بنشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون استئذان كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال رغبته في النشر في المجلة الورقية حصريًّا. علمًا بأن ما ينشر إلكترونيًّا لا يترتب عليه أي مكافأة مالية.
- المجلة تلتزم بإبلاغ الكتاب بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- للمجلة حق إعادة نشر المادة منفصلة أو ضمن مجموعة من المقالات بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى لغة أخرى دون استئذان صاحب المادة.
- المقالات المنشورة في مجلة حراء تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- مجلة حراء ترجو كتابها الأكارم أن يرسلوا مع المادة نبذة مختصرة عن سيرتهم الذاتية مع صورة واضحة لهم.

ترسل جميع المشاركات إلى البريد الآتي: hiragate@yahoo.com

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

مجلة علمية ثقافية أدبية
تصدر كل شهرين عن دار الانبعاث للنشر والتوزيع

رئيس التحرير
هانئ رسلان

مدير التحرير
نور الدين صواش

الإخراج الفني
نور الدين محمد

منسق الاشتراكات والتوزيع
علاء الكوابري
+201000780841

نوع النشر
مجلة دورية تصدر كل شهرين

الطباعة
دار الجمهورية للصحافة

رقم الإيداع
٢٤٢٦١

ISSN 2357-0229-73

IRAQ
Kani Irfan Publishing English Village N°9 / Erbil
Phone: +964 750 713 8000
hiragate@yahoo.com

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton, NJ, 07011, USA
Phone: +1 732 868 0210
Fax: +1 732 868 0211
hiragate@yahoo.com

EGYPT
٢٢ ج جنوب الأكاديمية، التجمع الخامس، القاهرة الجديدة، القاهرة.
اشتراك وتوزيع هاتف: +201000780841
hiragate@yahoo.com

NIGERIA
Nusret Educational And Cultural Co. Ltd.
Aguiyi Ironsi St. No: 77/B Maitama - Abuja
Phone: +2349030222525
hiragate@yahoo.com

للتواصل مع إدارة المجلة | hiragate@yahoo.com
+2 01094338182

لا تكن ممن يموتون في العشرين ويُدفنون في الثمانين..

إضفاء لون جديد على الأدب الروائي..

أيها الشاب! إنك بطل هذه الرواية..

مركز التوزيع: دار الانبعاث | daralinbiath@gmail.com | 00201023201002
www.souq.com
مكتبة الشروق | Shorouk Bookstores | مكتبة فكرة ستي ستارز

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

الميزان

مَنْ عاشَ سليمَ الوجدانِ ورزينَ الخَطْوِ بإيمانِ
أبدًا لا يشقى في الدنيا لا يخْجلُ عندَ المِيزانِ
أمّا منْ عاشَ كمَا يهْوَى فهَوَاهُ سبيلُ الخُسْرانِ
لنْ ينفعَ مالٌ أو ولدٌ أو جاهٌ فالمنصبُ فانِ

***

ISSN 2357-0229
www.hiragate.com